زعيم القبيلة

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتاب: زعيم القبيلة
تأليف: أحمد أبوسيف
القطع: 14*20
رسومات: غين الحكيم
سنة النشر: 2024
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
الناشر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 11646 / 2024
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 507 - 7

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-507-7

زعيم القبيلة

٢ نوفيلا

زعيم القبيلة & صجر

أحمد أبوسيف

أولاً: زعيم القبيلة

من ينازع وحوشًا يجب أن ينتبه جيدًا؛ كي لا يتحول هو بدوره إلى وحش. فحين تطيل النظر إلى الهاوية، تنظر الهاوية إليك أيضًا، وتنفذ فيك ومن خلالك.

- نيتشه

الإهداء

لحظة الولادة الأولى لتلك الرواية كانت عبارة عن منشور على صفحة escatopia المهتمة بأدب الفانتازيا على الفيس بوك، منشور بتاريخ الخامس عشر من فبراير عام ألفين وسبعة عشر، وجاء فيه الإعلان من قبل إدارة الصفحة عن مسابقة للقصة الفانتازية... تحصل القصص الفائزة فيها على النشر في كتاب مجمع تصدره دار نشر الكنزي للنشر والتوزيع، ثم إني دخلت في تحدٍ مع نفسي لكتابة قصة جديدة تناسب تلك المسابقة، وفي خلال أيام قليلة كنت قد انتهيت من قصة تتكون من أربعة آلاف وخمسمائة كلمة -تقريبًا- أسميتها "صائدو سا" فحصلت على المركز الأول في المسابقة، وتمت تسمية المجموعة القصصية كاملة على اسمها "صائدو سا وحكايات أخرى" وتلك هي روايتنا التي صار اسمها الآن "زعيم القبيلة". أردت أن أذكر تلك الحكاية أولًا قبل شروعي في كتابة الإهداء، وإهدائي هنا إلى صديقي الكاتب الخلوق، والمحترم؛ أحمد صلاح المهدي. تذكر حينما أبلغتني بخبر المسابقة، وحينما أرسلت القصة إليك، وكلامك الجميل عنها بعد تقييمها من قبل لجنة القراءة، وتشبيهك لأسلوبي بأنه شبيه بأسلوب أحمد خالد توفيق. لم أكن حينها إلا كاتبًا هاويًا، بالكاد يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا، ومعظم كتاباته إما على جروبات الفيس بوك أو على موقع الكُتاب الهواة "واتباد". وقد ساعدتني مسابقتك تلك على أن أكتسب دفعة معنوية ما زال أثرها يعيش معي إلى تلك اللحظة وأنا أضع نقطة نهاية لعمل لي –أعتبره أنا نفسي- غاية في الروعة، وأحد الأسباب الرئيسية لكتابة هذا العمل بعد فضل الله علينا ومنته كنت أنت. فشكرًا.

أحمد أبو سيف.

بدايـــــــة

إن الكلام وإن كثر، فليس بكافٍ أن يصف مدى عزنا وفخرنا نحن أبناء "آلسا" بأنفسنا، وليست الأشعار في مدحنا ووصفنا بكافية وإن تغنى بها الشعراء قرونًا، وليس حبنا لأنفسنا من قبيل مصادفات هشة أو قيم فارغة، وإنما هو من وحي واقعنا الذي نعيشه؛ ذلك الواقع القاسي، المظلم،والمرير، الذي نعيش فيه مقاتلين صيادين مكافحين من أجل العيش. ورغمًا عن ذلك الواقع، قد نلنا العيش وليس هو فقط مجرد العيش -ذلك الذي نلناه- ولكنه عيش مليء بالمجد والعز والفخار.

نحن أهل "آلسا" العظام صائدي مخلوقات الآرتميس الرهيبة، السيوف الحديدية في قبضاتنا لائنة، والهراوات الثقيلة حد الموت نحملها كما نحمل الخفيف من المتاع، لهونا جد وجدنا لهو، وقوتنا جميعًا نكتسبه بالصيد في أشد الغابات شرًا وقتامة... نحن أعظم جنود الغابة وحراسها المخلصين.

إني أنا المتحدث في تلك الحكاية، وإنها لقصتي التي مازلت حتى الآن أعاني من تصديقها رغم أنها لي وأنا الذي عشتها، أعاني من تصديقها رغم جديتها وواقعيتها وأثرها في نفسي، ولست ألوم من يستمع أو يقرأ إن لم يصدق... فأنا نفسي لست بالكامل أصدق. ومع ذلك مرغمًا ومنجرفًا أحكيها؛ لأنها تستحق من جانبي أن تحكي وتستحق من الآخرين –لمدى إثارتها وإمتاعها- أن تسمع. فها أنا ذا أحكيها؛ قصتي أنا المدعو "ديا سا".

ما بعد البداية

اعتدت في الآونة الأخيرة أن أجهر بملء فمي مفتخرًا بالقول:أنا رجل من قومي... رغم أني -ولا يخفى ذلك على أحد- قد كنت بالأمس أزدريهم، أصبحت أمهر صائديهم وأقواهم، تتهشم جماجم آرتميس الغلاظ تحت هراوتي، ويعتز في القوم من صحبني في الصيد ساعة، وقد كنت بالأمس جبانًا رعديدًا لا وزن لي، ما إن يراني أحد الصيادين المتمرسين أو حتى جمع منهم حتى يتغامزون - استخفافًا بي- ويتضاحكون. فماذا حدث؟ وكيف حدث؟ بل من أنا أولًا؟ ومن هم أبناء قبيلة آل سا؟

الفصل الأول
لحظة ولادة

حيث نعيش تحيط بنا الغابات من كل جانب بأشجارها العديدة الكثيفة شديدة الطول، فشمالًا غابات، وجنوبًا غابات، وشرقًا غابات، أما في الغرب فتوجد التلال المبتلة التي تروينا بمائها العذب غير المنقطع انسداله على مر العام، تنساب المياه العذبة من التلال في شلالات عديدة تجعل للماء صوتًا يسمع من على بعد مسافات، وتمر عبر أكواخنا في قنوات كثيرة ومتفرعة كما الشرايين، قنوات تحمل الماء إذ يجري فيها مسرعًا حتى ينتهي به المطاف بالصب في المحيط، فيختلط بما فيه من ملوحة ولا يعود بعدها يصلح للشرب.

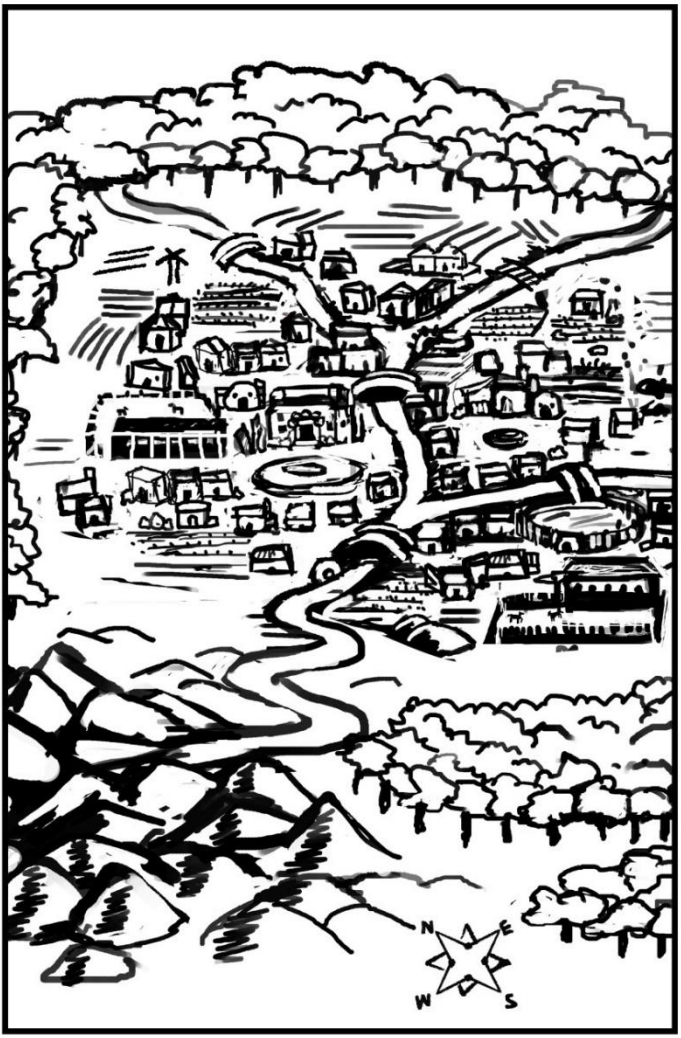
N
E
W
S

في مكان عيشنا هذا تحيط بنا الغابات من كل جانب وتحيط المياه بالغابات من كل جانب أيضًا، أقرب الشواطئ إلينا تقع على مسيرة نصف يوم شرقًا حيث يقع المصب، والأخرى لم يصل إليها أحد بعد... تعيش طائفة منا على الصيد، وطائفة على الزراعة، وأخرى على تشكيل المعادن، وأخرى على تربية الجياد، وأشياء متعددة من طرق العيش، لكن أعز أفراد القبيلة وأكثرها شرفًا وأرفعها منصبًا هم الصيادون، وكما يقول والدي دائمًا:المجد للصيادين.

كان والدي أعظم صياد في تاريخ القبيلة... على الأقل هذا ما يقوله له الناس؛ لكي يخففوا عنه، سلاحه المفضل هو الهراوة الثقيلة المطرزة برؤوس الرماح، وكما جميع الصيادين يخرج بحثًا عن آرتميس، والآرتميس هي فرائسنا المعتادة، مخلوقات بغيضة عنيدة لكن لحمها هو الأطيب والألذ، لها أربعة أرجل ثقيلة وقوية، لا يتمنى أحد أن تدوسه بها، ولها جماجم غليظة وفوق أنوفها رماح بيضاء اللون، حادة أقوى من الصخور، وأكثر صلابة من المعادن تستخدمها في الدفاع عن نفسها.

الصغير منها هو ما يطارده الصيادون، ويتميز بلونه الأحمر وغبائه الذي يقوده دائمًا إلى القنص، والكبير منها أزرق يميل قليلًا إلى السواد وهو أكثر عنادًا وذكاء وأطول رمحًا، دائمًا ما يجتمع في تكتلات ولا يخرج من مسار القطيع إلا للضرورات، ولا يطول خروجه، وذلك النوع يتجنبه الصيادون، ولا يمكن العبث معه، وما ينتشر بينهم من أن لحمه هو الألذ ماهي إلا تكهنات، لكن أحدًا لم يذق لحمه من قبل.

لم يَخُضْ أحد رجال القبيلة مسيرة ثلاثة أيام في اتجاه الشمال من قبل، ومن فعل منهم ذلك لم يعد قط بسبب الأعداد الهائلة للآرتميس الأزرق، لكنه ليس الأخطر في السلالة، الأخطر من بينهم هو آرتميس الطائر، أسود شديد السواد كليلة مظلمة تخلو من الأقمار، في نفس حجم آرتميس الأزرق، لكنه أعظم منه شرًا وأكثر مكرًا، يتميز عنه بالأجنحة الضخمة وبعيون حمراء كجمر من النار، يأكل رفاقه من آرتميس الأحمر والأزرق، ويأكل رفاقه من آرتميس الطائر إن اشتد عليه الجوع، ولذلك هو نوع نادر من حيوانات الآرتميس، لكن مع ندرته يمثل أكبر كابوس لصائدي آل سا، ومعظم أحاديثهم تدور عنه، ودائمًا ما ينصحون أنفسهم قائلين:إن قابلته في يوم اهرب، ولا تدعه يراك أو يسمع دبيب خطواتك أو حتى يشعر بهمسك.

آخر نوع فيهم هو آرتميس الذهبي، ذلك النوع يقال أنه في حجم آرتميس صغير وبنفس مستوى غبائه، ويقال أيضًا أن جلده من الذهب الخالص، وتقص عنه الكثير من الأساطير، حيث يقال أنك لو رأيته وهممت بضربه على رأسه وتطلب أمنية ستتحقق، أي أمنية تطلبها ستتحقق في لمح البصر، ويوميًا يتحدث عنه الصيادون وعن الأساطير التي تدور حوله، وينشدون له الأغاني في رحلاتهم للصيد.

يا صائد ينتظر فريسة .. قد ضاع الحيوان الأصفر

من يجده يطلب أمنية .. ومن ضل مكانه لن يخسر

على ظهره أجنحة قوية .. وفي قلبه سحر لا يظهر
من الذهب مصنوع جلده .. في الغاب ينادي ويجعر
احذر من شيء تبغاه .. ومما تتمنى احذر

وكلما ذُكرت الأبيات انقسموا إلى فريقين، فريق منهم يقول أن له أجنحة، وآخرون ينفون ذلك، ووالدي من القوم الذين ينفون أن تكون له أجنحة، سألته من قبل قائلًا: ما معنى الجملة التي تقول "مما تتمنى احذر"؟

فاقترب مني وقص عليّ الآتي، قال: في يوم من الأيام، وفي الماضي الغابر كانت الغابة تمتلئ بالمخلوقات، وكانت أشبه بفردوس الصيادين، وكان من بين تلك المخلوقات آرتميس الأحمر، وهو مخلوق كبير الشهية ويأكل الكثير "لهذا لا نربيه في بيوتنا، نذبحه فور اصطياده" ولم يكن ما يصطاده ذلك المخلوق الشجع في الغابة يكفيه، وكان يتمنى المزيد والمزيد، وفي يوم ظهر بينهم آرتميس الذهبي، ويقال أنه مر على قطيع من آرتميس الصغير ذي اللون الأحمر، وكان ذلك هو النوع الوحيد المتوفر من مخلوقات الآرتميس، استغربوه واستغربوا هيئته ولونه الذهبي اللامع، فهمُّوا يغرسون رماحهم في جسده ورأسه، لم تكن تلك المخلوقات البغيضة تعرف أهمية الآرتميس الذهبي ولا قدرته على تحقيق الأحلام، لذلك لم يتسنَّ لأحدهم أن يطلب شيئًا معينًا وهو يهم بقتله، لكن الذي حدث هو أنه اطلع على الشيء الذي يرغبون به جميعًا ومنحه لهم، وحينما خرج منهم كانوا أول قطيع يتحول إلى

آرتميس أزرق، فقويت أجسادهم وقتم لونهم، وتطاولت رماحهم، وتضاعف مستوى ذكائهم حتى بات في استطاعتهم أن يصطادوا ضعف ماكانوا يأكلونه من قبل، لكن مع ذلك أيضًا باتوا أكثر حاجة للطعام من ذي قبل وتضاعف جشعهم مرات، فتكاثر ذلك القطيع وهم يأكلون كل ما يرونه في الغابة، فقلت المخلوقات فيها، وسبّب هذا جوعًا للصيادين، وهذا لم يكن يكفيهم، وكانوا ينظرون إلى السماء فيلحظون الطيور تطير بعيدًا عنهم، وتلك أيضًا أرادوا أكلها فظهر فيهم آرتميس ذهبي للمرة الثانية، وتلك المرة مر على قطيع من آرتميس الأزرق، وحينما خرج منهم كان القطيع تحول بالكامل إلى آرتميس طائر، فتحول لونهم للأسود، ونمَا لهم جناحان، وقويت أجسادهم وتطاولت رماحهم وتضاعف مستوى ذكائهم، وزادت حاجتهم للطعام أضعافًا، وبدأت تلك المخلوقات تأكل نفسها، ومع ذلك لا يكفيهم طعام، وزادوا جشعًا على شجع، وحينما قلت المخلوقات في الغابة تمردوا على أنفسهم وتغذوا على بني جلدتهم...

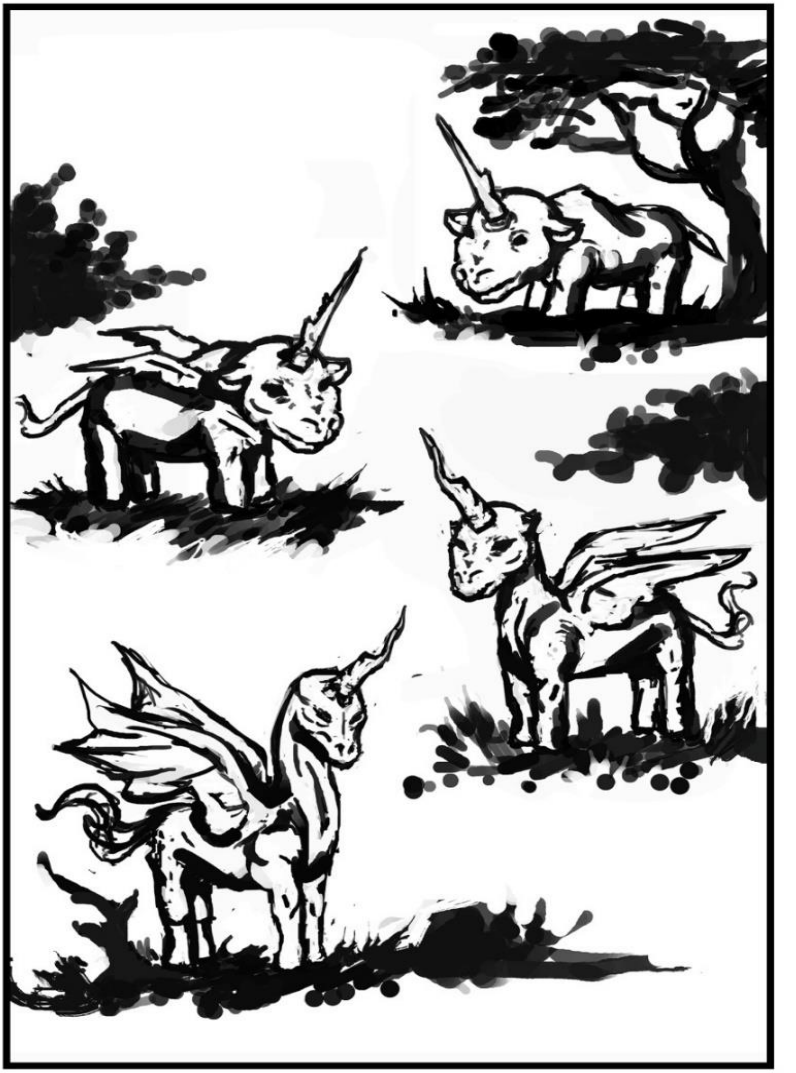

كل هذا بسبب طبيعتهم الشجعة وطمعهم الملحوظ، فباتوا يأكلون أنفسهم، وبتنا نحن نصطادهم؛ لأنهم المخلوق الوحيد المتوفر في الغابة، أرادوا أكل كل مخلوقات الغابة، فأكلناهم نحن وأكلوا هم أنفسهم، وانقلبت أمانيهم عليهم بنتائج عكسية، ولهذا احذر مما تتمنى وإلا أوردك موارد الهلاك، اجعل لنفسك نظرات ثاقبة تبصر بها نهايات الأمور، وما قد تؤول إليه قبل أن تطلبها، فهذا أجدر من أن تخوض فيها ولست تعلم ما قد تكون عليه نتائجها في نهاية الأمر، فرب شيء قد صغر في عينك وفيه رغم ذلك هلاكك، وإنه من يعمل حسابًا لخطوة يخطوها، كان أقرب للسلامة ممن يسير على عماه غير آبهٍ.

يقول لي: احذر مما تتمنى. فيرتفعا حاجباه، ويشيرإليّ بإصبعه كلما ذكر تلك الجملة، ينطقها بكل جدية وحزم حتى أظن أنه يأمرني بها، وليس ينصحني.

الفصل الثاني

الأب الزعيم

إن للصيد لدينا طرقًا وطقوسًا، ومنها أننا نتجمع ونتسلح ونتجهز بعدة وعتاد، ونسير إلى الغاب صفًا واحدًا نتغنى في صوت واحد مجتمعين بأغنيات عدة تميزنا نحن الصيادين، نعرف فرائسنا وطباعها وأماكن تجمعها وتفرقها، نحيط بها وننصب لها الشراك ونسلخ ما نصطاده منها في قلب الغاب، ثم نعود محملين بلحوم وعظام وجماجم وجلود آرتميس المقتسمة بيننا...

كما قلت، كان والدي أعظم صياد في تاريخ القبيلة، حيث إنه أول من صرع آرتميس أزرق ولم يفعلها أحد غيره من قبل، فعلها مرة وَذَاعَ بسببها صيته بين أبناء القبيلة، فزاد ذلك من غروره وأراد إعادة الكرة، لكي ينال المزيد من رضاهم، يقص عليّ ماحدث ويقول: رفضوا أن يصحبوني حينما أخبرتهم برغبتي في صيد آرتميس أزرق، وقالوا بأني مجنون، لكنهم صُعقوا حينما رأوني عائدًا برأسه، وماكادوا يصدقون، ولقد كرموني ومنحوني اللقب الذي لا أزال أُدعى به حتى الآن "أري سا" أي فخر قبيلة آل سا، وحينما ذهبت لأفعلها مرة أخرى...

دائمًا ما يتمهل والدي بعد قول تلك الجملة، ثم يستأنف حديثه ويبدأ بهذا السؤال: لا أعلم... كان مخلوق الآرتميس الأزرق واقفًا هناك وحيدًا، فمن أين أتى باقي القطيع؟

يكرر والدي هذا السؤال صارخًا كل مرة يطرحه فيها كما لو أنه يسترجع ماحدث له حينها، حيث إنه تعرض لكمين أعدته له مخلوقات الآرتميس، وحينما طال غيابه ذهب بقية الصيادين الذين رفضوا الذهاب معه في المرة الأولى للبحث عنه، فوجدوا القطيع بالكامل قد نفق تحت هراوته، ووجدوا والدي كذلك ساقطًا معهم على الأرض وغارقًا في دمه، ولقد كانت تلك معركته الأخيرة التي كاد يموت فيها، لكنه بدلًا من ذلك أصابته إحدى الطعنات في ظهره وأفقدته الشعور بأقدامه، ولقد أكد لرفاقه بعد تلك الحادثة صحة ما يتناقلونه عن ذكاء الآرتميس الأزرق، وزاد كذلك من خوفهم لذلك النوع، وتجنبهم له.

إنه مخلوق غاية في القوة والشراسة والدهاء، ومواجهته وحيدًا لا تعني إلا الموت بواحدة من طرقه العديدة في قتل الصيادين، فإما خزوقةً على سن رمحه أو دهسًا بحوافره الثقيلة أو أكله للضحية، فإن له فكًا قويًا إذا قبض به على صخرة أو عظمة هشمها، وله أسنان قصيرة غليظة ناصعة البياض لا تسوس، يظل على الدوام يداريها أسفل شفاهه البارزة الناعمة المكتنزة اكتنازًا،لا يظهرها إلا في لحظات غضب أو عند الهجوم ليرهب بها خصومه.

أظن أن والدي حينها لم يكن يعرف مقولة "احذر مما تتمنى"، لكنه الآن يرددها معظم الوقت، فقد تعلم الدرس جيدًا وفقد معه أقدامه، وأكاد أجزم أنه مع ذلك لو عادت إليه أقدامه لعاد معها إلى ميدان الصيد غير آبهٍ، وإن والدي كما أعرفه لديه هوس بالصيد يعدل هوس آرتميس بالطعام، لكن عوضه الله بدلًا من ذلك بأخي

الأكبر "داري سا" الصياد الماهر وابن أبيه المفضل الذي ينتظره يوميًا بعد رحلات صيده ليقص عليه ما حدث ويخبره بكم رأس أطاح بها، وكم قطيع هربوا خوفًا منه، وإني أنا الذي أخدم والدي طوال اليوم لم يحدث أبدًا أن لقيني عائدًا وأخذني في حضنه كما يأخذ "داري سا"، ولم أره في يوم ضاحكًا لي كما يضحك في وجه "داري سا"، ربما لو أصبحت صيادًا في يوم قد يفعل، بل وربما يفضلني عليه، لكن هذا أشبه بالمستحيل بالنسبة لي وأنا أمتلك هذا الجسد الضعيف الذي يعلق عليه أبي ساخرًا: لا أعلم أي غلطة ارتكبت؟

"يعني أثناء إنجابه لي" لقد جعلني ضعفي لقمة سائغة وغرّ بي فتيان القرية، إنهم يصرعونني يوميًا، وينجدني منهم الحظ في يوم لا يطلبوني فيه لنزال... ربما في يوم أصرعهم جميعًا، ربما يأتي يوم أحصل فيه على ما أتمنى، أسير في وسط الغابة فأجد آرتميسًا ذهبيًا أضربه على رأسه وأتمنى منه أن يجعلني أقوى منهم جميعًا، هكذا أريد لأحلامي أن تتحقق، وهكذا تخيلتها وحلمت بها أثناء نومي آلاف المرات.

كنت حتى بلوغي سن السابعة عشر -وهو سن مناسب جدًا للبدء في الصيد- لم أكن حتى قد ذهبت إلى رحلة صيد واحدة، كلما يجيء يتذكر والدي ذلك يقول أني جبان رعديد، وكلما يحدثني في الأمر وأرفض يصرخ في وجهي قائلًا: اغرب عن وجهي.

وإن ميزت بأني مصدر إزعاج لوالدي وسبب حزنه، فإني مصدر تسلية لكل فتيان القرية، ومصدر للمزاح والسخرية، أتذكر تلك

المرة التي رأيت فيها أخي جالسًا مع أصدقائه، فأشار لي أحدهم قائلًا: صغار آرتميس تتعرض دائمًا للصيد على عكس الكبيرة منها.

وما عنيه بذلك هو السخرية من صغر هيئتي، فنظر إليّ بقية الجالسين في انتظار ردي، حيث إنه السكوت عن الإساءة من الأشياء التي لا يتقبلها قومي... فالتفت إليه، ثم قلت: وهي مع ذلك قادرة على أن تغرس رماحها في مؤخرتك. فانفجر الجالسون في ضحك هيستيري، وظل هو محدقًا بعينين واسعتين، لكنه منذ تلك اللحظة لم يعترض طريقي مرة أخرى، إن أولئك المزعجين لن يعترضوا طريقي إذا تيقنوا أن مواجهتهم لي ستعود عليهم بالخسارة، وأعتقد أن هذا الأحمق لن يعترض طريقي مرة أخرى، لكنه الوحيد الذي أعرفه ويستخدم لسانه في النزاعات بدلًا من الاعتماد على قوة ساعده، وإنه وكما أعتقد هو الأحمق الوحيد الذي يسعني النيل منه في تلك القرية الخربة.

إن مشكلتي الوحيدة أني ولدت ابنًا لصياد، فلو كنت ولدت ابنًا لتاجر على سبيل المثال، لكان لساني ذا فائدة حينها، ولرفعت به صوتي في قلب السوق أدعو الناس إلى مقايضتي بأشياء أثمن من أشياء ثمينة أملكها، لكنت تبادلت للحصول على لحوم آرتميس بدلًا من تعريض حياتي للخطر في صيدها، إنهم لا يفهمون أن مثلي لم يُخلق للصيد، لا يعلمون أن هناك ميادين أخرى تكون فيها الكلمة أعلى من سطوة الهراوة وأمضى من حد السيف، فيا ليت قومي يعلمون، وياليت أبي خاصة يعلم.

أنا أحب والدي أكثر من أي شيء آخر، أعكف على مداواته وإطعامه وشُرْبه طوال الوقت، أساعده في قضاء كل حاجاته وأنقله إلى سريره حين يجيء وقت النوم، أرعاه كما يحب ويرضى، ولا أرفض له طلبًا أبدًا، ومع ذلك لا أكون ابنًا له إلا إذا اتجهت للصيد، لا أفهم أنا ذلك جيدًا، فقد حري بتلك الطعنة التي أقعدته أن تجعله حريصًا على ولديه، حري بها أن تزرع في قلبه خوفًا شديدًا علينا من مخلوقات الآرتميس البغيضة، إلا أنها بدلًا من ذلك أظنها قد زرعت في قلبه بغضًا على بغض لتلك المخلوقات، وزرعت فيه أيضًا رغبة في الانتقام، انتقام لعله يرجو تحقيقه على أيدينا نحن بعدما أصابه ما أصابه، وأصبح قعيدًا. فماذا به يفعل إذا نحن أقعدنا إلى جانبه! مَن بعدئذٍ يطعمنا ويرعانا؟

إذا حدث ذلك سيفضي بنا نحن الثلاثة إلى الموت جوعًا، ولن يذرف علينا أحد نصف دمعة، إنها عادات قبيلة آلسا.. قبيلتي لا يعيش فيها إلا من كان قادرًا على العيش، فلا أموال فيها ولا إكرام ولا إقراض ولا إحسان بعطاء أيًا كان نوعه إلا في وجود مقابل، عمل مقابل عمل، خدمة بخدمة، حيوان مقابل حيوان، أو حتى حيوان مقابل إنسان، فهكذا حصل والدي على زوجة له، أصبحت فيما بعد أمي، رآها تسير بين شوارع القرية فأعجبته وقايضها من والدها بواحد من أفضل جياده. حينما أسأله عن ذلك يمتعض ويقول: كانت مقايضة فاشلة، فلقد ماتت هي، وما زال الحصان مع والدها حيًا يرزق.

أجيبه أنا: ولكنها أنجبتنا لك.. أنا وأخي، ألا ترانا أفضل من حصان؟

- وأنجب الحصان إلى سيده ثلاثة. هكذا يقول في نرفزة ونفاذ صبر.

أتركه بعد ذلك ثم أذهب إلى فراشي، وأنا لا أزال أفكر.. لعله محق، ففي النهاية نحن اثنان، وأتى الحصان إلى سيده بثلاثة.

الفصل الثالث

المسير للغاب

إن أيامي من قبل قد كانت على الدوام متشابهة، إذ أكون فيها أول من يستيقظ في البيت، أقوم وأعد معدات الصيد الخاصة بأخي؛ سيفه الذي يشق به بطون الآرتميس، خنجره الحاد الذي يساعده على سلخها، وخطافه الموصول بحبل يلقيه عليها فينغرس فيها ويشدها به حين هروبها وقت الصيد، وكيسه الذي يجمع فيه صيده المسلوخ وهو عائد.

أعددت عدة أخي تلك في يوم، ثم مرغمًا وعلى عادتي جلست بقرب والدي أنتظره حتى يفيق، وحينما يفيق وتتفتح عيناه يأمرني فأطيع ويرسلني فأذهب.. لا أدع شيئًا يعكر صفوه حتى إني أذب الذباب الذي يحوم حول وجهه، وليس هذا لأني ابن بار بأبيه ...حسنًا أنا بالفعل أبر أبي، أبر به أكثر من أي ابن آخر في قبيلة آلسا، أفعل هذا؛ لأنه يتوجب عليّ فعله، ولأني أرغب في فعله. وأفعله أيضًا مرضاةً له وخوفًا من سخطه عليّ؛ لأنه حينما يغضب يهددني بالصيد، يقول لي يوميًا ستذهب مع أخيك، لكني دومًا أجد ما يقنعه بمكوثي عن الصيد.

في ذلك اليوم فعلت ما أنا بارع فيه، وقد ظننته صباحًا هادئًا يمر كغيره، إلا أنه لم يكن كغيره... مرت ساعات على والدي وأنا جالس

بجانبه، وحينما خرج "داري سا" من غرفته رأيته يعد حقيبة صيد أخرى، فأسرعت بقولي إليه: لا .. لا تفعل، لقد أعددتها لك.

فقهقه حينها أبي بصوته الغليظ بنصف ضحكة ما لبثت أن خمدت في فمه، عادت بعدها جديته وهو يقول: تلك الحقيبة لك... اليوم ستذهب معه.

نظرت إلى والدي فرأيته عازمًا، ونظرت إلى"داري سا" فرأيته يكتم ضحكته بخبث، وقفت وأجبته بصوت مرتعش وبجمل متقطعة: ككك ك كما تريد ياوالدي. ثم هممت أعدو إلى الباب لأنفذ بجلدي، ففاجأني أصدقاء أخي بوقوفهم أمام الباب قد سمعوا ما قلناه، فأوقفوني، تكاثروا عليّ جميعهم، ثم قيدون وأعادوني إلى داخل البيت، لم ترق فِعلتي تلك إلى والدي وسبّبت له الإحراج الشديد، وزادته غضبًا على غضب، ما جعلني أقبل بالذهاب هربًا منه ومن غضبه.

سرت معهم في الطريق، وقد بلغ عددهم أحد عشر، جعلوني أوسطهم؛ كي لا يسعني الهرب إن أنا أردته. خرجنا معًا من القرية ومع أول خطوة لنا داخل الغابة، بدأوا يتضاحكون وينشدون الأغاني الملحمية استعدادًا لمواجهتهم مع مخلوقات الآرتميس، بدوا واثقين من أنفسهم، وبدوا أقوياء للغاية حتى أصابني ما بهم وظننت اليوم يمر.

مرت لحظات وبِتنا نسمع صرخات، مرت لحظات أخرى وأخرى، راح الصوت فيها يعلو ويزداد صخبًا، صرخات مرعبة غليظة، بدت لي وكأنها صوت ألف رجل يصرخون من الألم، وكلما يعلو صوت الصرخات يخفض صوت الصيادين ويتوقفون واحدًا تلو الآخر عن الغناء، قدماي ترتعشان ارتعاشًا، أنفاسي ضيقة، وقلبي يقفز بقوة ويدق في صدري كما الطبول، إنها علامات على أن الخوف يتملكني ويسيطر عليّ، نظرت خلفي بنصف التفاتة وتمنيت لو أرى طريقًا سالكًا... سيكون الأمر في غاية البساطة، سأسقط أمتعتي مرة واحدة وأعدو، إلا أنه ولسوء حظي، لم يكن الطريق سالكًا.

عاد صوت الصراخ مرة أخرى، وصار مع تقدمنا أعلى من ذي قبل وهم من حولي يتصنعون الصلابة والثبات، يقولون أن مخلوقات الآرتميس لديها قدرة على تخزين أصوات ضحاياها، وحينما تحس بخطر تسترجع تلك الأصوات وتخرجها بكل هذا الصخب لتبعد عن أنفسها الأخطار. يذكرون تلك الحقيقة فيسخرون منها ومن حيوانات الآرتميس، يقول أحدهم: ما سمعت أذني شيئًا أبغض إليها من هذا الصوت. ويجيبه الآخر: بل إنه أحب إليّ من غناء فتيات الحفل. وسط انهماكهم في أحاديثهم تلك أسقطت أمتعتي كلها عن ظهري مرة واحدة، عدوت.. قابلني آخرهم في الصف وقد كان أصلعَ بلا شعرة واحدة تكسو رأسه، قلت أمازحه: متى سقط شعرك؟ وقبل أن يفكر في إجابة لسؤالي أو يعلم سبب سؤالي له وضعت إصبعًا في عينه وأكملت بعده الركض، لم يتبعني منهم

أحد.. ظننتني نجوت حتى وجدتني زاحفًا بوجهي على الأرض، حيث كبّلا قدماي وقد ذقت التراب. خطافًا أصابني به الأصلع.

تفقت التراب الذي سد حلقي، وقبل أن أتنفس صرخت: أيها الأصلع، لو أن رأس الخطاف أصاب إحدى قدميّ لقطعها! أجاب غير آبه: أتمنى لو أنه قد فعل. ثم جرَّني بالحبل إليه، أوقفني، ناولني متاعي، ودفعني بغيظ حتى صرت في المقدمة.

شلة من الصيادين الأوغاد هم أصدقاء أخي، أخذوا يسيرون بلا انقطاع وسط الغاب دون خوفٍ ودون اكتراث -على الأقل هذا ما بدا عليهم- سألتهم وقت أن أنهكني التعب: ألا يكفي هذا القدر؟ فسخروا مني وضحكوا وهم يتصنعون القوة والثبات.. مضوا في طريقهم مترقبين يشحذون أسلحتهم، ومضيت أنا خائفًا لاهثًا تتعبني الحقيبة التي أحملها، في يدي اليمنى يقبع سيف قبلت به بعد أن رفضت هراوة والدي لمدى ثِقلها، وحملت في اليسرى درعًا، لكني مررته إلى أحدهم، بدوا الأوغاد كما لو أنهم سيسيرون إلى الأبد حتى توقفوا أخيرًا تحت إحدى الأشجار، أرسلوني أجمع الحطب لكي يشعلوا النار ويعدوا عليها الشراب، حفظت عنهم بعض الأغاني، رحت أرددها أثناء جمعي للحطب... تمايلت راقصًا رقصة صائدي آل سا ورددت كلماتها الشاعرية في زهو وانبساط، وسط ذلك سمعت جلبة فأوقفت الغناء، تلفت حولي بحذر، السماء صافية والأرض خاوية، وأفرع الأشجار ساكنة، ومن على بعد خطوات حيث أتيت أسمع الأحد عشر صيادًا يتحدثون حديثًا عاديًا غير مضطرب "ما هي إلا جلبة زائفة إذًا" وأنا أقول لنفسي

ذلك علت بالقرب مني صرخة قوية سيبت ركبي ولينت مفاصلي، نظرت اتجاه الصوت، فوجدته أمامي وفي عيونه شر.. كل الشر.

تلك المرة الأولى التي أرى فيها آرتميس على قيد الحياة، أحمر اللون، قصير الأرجل رغم ما بها من غلظة، ذو جمجمة غليظة تحجب جزأه الخلفي، وتعطي لمن يرى مقدمته فقط انطباعًا بأنه كليًا عبارة عن جمجمة وحسب... هز رأسه هزاتٍ قاسية وضبط رمحه اتجاهي حتى أحسسته -رغم المسافة بيني وبينه- يخترقني، نفث بأنفه نفثات حانقة، أظهر لي أسنانه، وعلى وجهه جلية نظرة غباء.

لم أحظَ بفرصة للتفكير، وليس التفكير هو ما أريده وإنما الهرب. عدت مسرعًا إليهم بكل ما أعطاني الله من قوة في أرجلي، ركض حيوان الآرتميس خلفي يريد الطعن، وصلت حيث يجلس أخي وأصدقاؤه، سألني أحدهم: ما حدث؟ ما بك؟ أجبته بنبرة من يوشك على البكاء: حيوان الآرتميس خلفي.

نظروا جميعًا إلى الطريق الخالية ولم يجدوا شيئًا، تضاحكوا في صوت واحد، لم تطل ضحكاتهم حتى قاطعها صوت دبيب أرجل ثقيلة في المكان، وعلى الفور أخذ كل واحد منهم موضعًا في تشكيل دائري وجدتني منه في الوسط.. نظراتهم فضولية تزرع المكان جيئة وذهاب، أقدامهم على الأرض ثابتة، وأسلحتهم في أيديهم، وصل حيوان الآرتميس وحيدًا إلينا، وقف أعلى التلة، رفع رأسه إلى السماء فخرجت منه اتجاهنا... صرخته المعتادة.

هرب أقرب حلقات الدائرة من الآرتميس وتبعه البقية كاملين، وجدتني وحيدًا في العراء، وليس معي سوى حيوان الآرتميس البغيض، وقعت عيناه عليّ، استفرد بي من دونهم... ضبط رمحه اتجاهي، أخذ يركض، وأخذت أنا أركض، عدوت، لهثت، لهثت وعدوت، وقد كدت أموت من الخوف قبل حتى أن يلمسني الآرتميس، في يدي السيف، ألقيته عليه دون أن أنظر.. فلم يصبه بشيء، تسارعت نبضات قلبي عن ذي قبل، تثاقلت أنفاسي أكثر وأكثر، تعسرت بجذع شجرة ملقى على الأرض، سقطت على وجهي وقد شعرت به يتحطم، تثاقل جفناي وأُغلقا، وبإغلاقهما حل ظلام لا يحل إلا على من ينام، أو من يموت. لم يدم الظلام عليّ طويلًا حتى بادرتني فيه الأحلام، رأيتني ضعيفًا، رأيتني جبانًا، رأيتني ذا جسد نحيل أكثر من ذي قبل وأبي ينظر، أخي ينظر، أصدقاؤهم ينظرون، وكل فتيان القرية وأهلها ينظرون.. جلست أسفل جذع شجرة وحيدًا أداري وجهي عنهم، وهم يسخرون، وهم يضحكون.

علمت حينها أنه لم يكن الموت، ففي الموت لن يتسنى لأحد أن يسخر من أحد. لذلك لم يكن الموت، ليس هو الموت، ليس بعد، ليس الآن.

الفصل الرابع

طعنة في الشجرة

ملقىعلى الأرض، عقلي في نصف وعيه، جسدي شبه مخدر، ووجهي للسماء، رحت لاشعوريًا أردد: ابتعد عني .. سأخبر أبي، سأخبر أبي.

تفتحت عيناي بروية، وجعلت أمد نظري في كل اتجاه لأرى، فلم أرَ غير الضباب. عيناي قاصرتان عن الرؤية، عقلي شارد، وطباعي متذبذبة كما لو كنت مجذومًا أو مجنونًا.

- هل أنا ميت؟ سؤال طرحته على نفسي وفي نفسي... لوقت مر، لست أدري كم كان، لم أتلقَّ إجابة حتى سمعت صوتًا غليظًا يقول: لا لستُ ميتًا.

نظرت إلى السماء وأخيرًا استطعت أن أميز ما أرى؛ ذو الجمجمة الحمراء واقفٌ أمامي.

لم أفكر طويلًا، وضعت وجهي في التراب وزحفت مبتعدًا عنه وأنا أصرخ صرخات مرعبة وهيستيرية.. نبهتني أصوات قهقهات عالية وضحكات طويلة، اعتدلت على ظهري، فرأيت الأحد عشر صيادًا كاملين يضحكون، وفي يد أحدهم رأس آرتميس مقطوعة، وليس آرتميسًا حقيقيًا هو...

الذي حدث هو أني حينما ذهبت لجلب الحطب اتفقوا على تركي بمفردي مع أول آرتميس يهجم علينا وينجدونني منه في آخر لحظة بغرض المزاح، ولكنه كاد يقتُلني.. تطلعت إليهم في عجب إلا أنهم مازالوا يتضاحكون، ما أثار غضبي عليهم بشدة، وبكل وقاحة أشار أحدهم إلى وجهي حتى كاد إصبعه يفقأ عيني، وقال: انظروا إلى أنفه، لقد تورم وتضاعف حجمه حينما سقط على وجهه.

وبنفس القدر من الحماس قال آخر: لقد تحول أنفه إلى اللون الأزرق. ثم سقط على الأرض من شدة الضحك وتبعه عدد منهم بلا اكتراث.. بل معظمهم، أحسست برغبة في البكاء، وأحسست بدموعي تريد لو تسيل، لكني أجاهد في منعها.. ازدادت رغبتي في البكاء حتى لم تعد لدي القدرة على منعها، وسقطت الدموع رغمًا عني.. انسالت على وجهي غزيرة، ودخلت قطرات منها في فمي فتذوقتها؛ لقد كانت دافئة ومالحة.

رأى بعضهم بكائي فوضعوا أيديهم على أفواههم ليمنعوا الضحك، فلم يستطيعوا وقْف الضحك كما لا أستطيع وقف البكاء، ضممت ركبتَيّ وحشرت رأسي بينهما، الدم يغلي في عروقي غليانًا، ورأسي تنتفض من شدة القهر، والدموع... الدموع ما زالت لم تتوقف، تلاشت قهقهاتهم أخيرًا، وشعرت أنهم باتوا يتفهمون، وضعوا أيديهم على كتفي وعلى رأسي لمواساتي، احتقرت شفقتهم عليّ، ظللت مُداريًا وجهي بيسراي ورحت أفتش بيدي اليمنى على الأرض بحثًا عن أي أداة فوقعت على سيف، حملته بقوة وضربت به في

الهواء قاصدًا به رقابهم، لم يطل السيف أية رقاب، لكنه اصطدم بذراع أحدهم وأصابها بقطعٍ غائر، وقفت أمامهم وأعدت الضرب بالسيف في الهواء عدة مرات، ابتعدوا في خوف، واستبدلت السخرية التي كانت على وجوههم بالجدية وبالحذر.

- هل جننت؟ هكذا صرخ أحدهم.

أردت أن أجيبه، فبدت الكلمات ثقيلة جدًا على لساني ولست أستطيع ولو حتى لفظها، ومع ذلك تحدثت، فعلا صوتي كما لم يعلُ من قبل: نعم لقد جننت، ملعون الصيد، ملعون "أري سا" ملعون "داري سا" وملعونون أنتم جميعًا.

صعقتهم القوة التي رحت أتحدث بها حيث إنهم لا يتوقعون مني شيئًا مماثلًا، وقفوا أمامي محملقين، خائفين، والسيف في يدي...تقدم "داري سا" متأسفًا لي، لكني أشعر في نظراته اتجاهي بخبث وسوء نية وأراه يريد أخذ السيف من يدي فوثبت عليه محاولًا ضربه به، سقط على ظهره، صرخ، وزحف عائدًا إلى أصدقائه... حملت الدرع والسيف،تركتهم خلفي، وركضت إلى قلب الغابة لا أعرف لي وجهة، ركضت حتى ابتعدت عنهم بمسافة كافية، بل ركضت حتى وصلت إلى مكان هو من البعد، بحيث إني لست أعرف كيف أعود إليهم منه مرة أخرى.

جلست وحيدًا، وقد نفذت إثارتي، غادرتني رغبتي في الركض، وتوقفت حاجتي إلى القتال، حينها شعرت بأن وجهي بالكامل محطم، وضعت أصابعي على أنفي أتحسسه، فوجدته متورمًا بالفعل، جلست وحيدًا ليس معي سوى الدرع والسيف ورحت في عقلي حياتي كاملة، أتذكر حياة كاملة من الذل، أتذكر حياة كاملة من التبعية والخضوع، أتذكر فأقرض على أسناني، حياتي كاملة تمر من أمامي فأحتقرها وأبصق عليها، تنتهي بي ذكراي إلى وجوه الأحد عشر صيادًا يتضاحكون عليّ، فأقف مرددًا: كفى كفى كفى، لا لن أخضع مرة أخرى .. ليس بعد الآن.

حملت السيف ووجهت ضربات متتالية إلى إحدى الأشجار بجانبي من شدة القهر، سمعت جلبة غير عادية تحدث ورائي.. فكرت أن أستدير لأرى ما يحدث، ظننته آرتميسًا آخر يقف خلفي، وأنا أستدير لأرى ما هو، كان رمحًا يقترب مني بسرعة هائلة، كل ما

لاحظته كان الرمح، وتفاديته على آخر لحظة قبل أن ينغرس في ضلعي، فسقطت مرة أخرى على وجهي المحطم ما آلمني بشدة، ونهضت مسرعًا رغم إحساسي من وجهي بالألم غير الهيّن، رأيته معلقًا في الشجرة، رمحه منغرس فيها، وقد أخذ يرفس محاولًا الفكاك منها ويموء، نظرت فهالني ما رأيت من لمعان لونه، ونظافة جلده، ورائحته الطيبة، ورقة ملامحه مقارنةً بكل الآرتميسات الأخرى لأنه وببساطة ليس آرتميسًا عاديًا، لقد كان آرتميس ذهبي... آرتميس ذهبي معلق في الشجرة ينتظرني أن أضربه على رأسه، أي مصادفة هي تلك، هذا أشبه بالمستحيل... لا ليست مصادفة، بل هو اختارني أنا وأتاني أنا بالتحديد، يعرف أن لدي حلمًا ويريدني أن أحققه...

إن لجلده بريقًا كبريق الذهب وكل شيء فيه يلمع ولو أني لم أتحسسه لقلت أنه مصنوع بالكامل من المعدن، كل شيء فيه يلمع عدا رمحه وعيونه فكانا طبيعيين وأظن أسنانه أيضًا تكون طبيعية إلا أنه مداريها، نظرت إلى وجهه ووضعت عيني في عينيه، وقلت له: أريد أن أصبح أقوى منهم جميعًا، أريد أن أكون أقوى صائدي آلسا... هل تستطيع إعطائي ذلك؟

لاحظته يموء إيماءاتٍ مستغربة، لا تشبه ما نعرفه من صراخ الآرتميس، كانت بالنسبة لي كالموافقة، فرفعت الدرع عاليًا وأنزلته على رأسه، لم يمس الدرع رأسه حتى مع يقيني بأني لم أقصد به إلا رأسه، أنا حتى لم أمسه، وقبل أن يحتك حد الدرع بجمجته

الغليظة رقيقة الملامح؛ سطع منها ضوء هائل كأنما قد حدفته علينا عين الشمس.

شعرت بأنه يأخذ شيئًا مني، وشعرت بأنه يعطيني شيئًا آخر، ليس إهداءً هو بقدر ماكانت عملية استبدال، وهي أيضًا أشبه بعملية امتصاص، لقد سحب قواي، ولم يتركني حتى انهرت على الأرض، ولم أتركه أنا حتى وفَّى بوعده إليّ... أو هكذا ظننت.

سطع الآرتس الذهبي السحري سطعته، أخذ مني وأعطاني، ومن مكاني على الأرض نظرت إلى حيث يقف فلم أجده، اختفى واختفت لمعته، ومحيت آثاره من على الأرض، كل شيء أحدثه بقدومه اختفى باختفائه عدا طعنته في الشجرة... تلك مازلت أراها.

الفصل الخامس

زعيم القبيلة

لا أعلم ماذا حدث، ولكم من الوقت حدث؟ الشيء الوحيد المؤكد بعد تمددي على أرض الغابة المكسوة بالعشب وصغار الأزهار هو مرور الكثير من الوقت عليّ، أقدره بأيامٍ عدة، فقد راحت السماء تضيء عليّ وتظلم مرات، وأنا ساكن مكبل، لست أستطيع غير التنفس، سمعت الأصوات تنادي باسمي (ديا سا‌ا، ديا سا‌ا‌ا) صوت أخي وأصدقائه الصيادين، اقتربت أصواتهم كثيرًا حتى ظننتهم يعثرون عليّ، اقتربت أصواتهم وصارت من القرب، بحيث لو أن أحدهم نظر أسفل قدمه لرآني، إلا أنهم ولسبب أجهله، لم يستطيعوا العثور عليّ، وكما بدت أصواتهم بعيدة وأخذت شيئًا فشيئا تقترب؛ على نفس ذلك الرتم، ولكن بصورة عكسية أخذت أصواتهم التي صارت قريبة شيئًا فشيئًا تبتعد حتى غابوا وغابت أصواتهم، حدث ذلك في الليلة الأولى.

في الليلة الثانية مرت قطعان الآرتميس بجانبي وعلى غير عادتهم لم يصدروا أية أصوات، لا خوار، ولا مواء، ولا صراخ، وكما لم يلحظني أصدقاء أخي رغم اقترابهم، قطعان الآرتميس كذلك لم تلحظ وجودي، ولا أحست حتى بأنفاسي؛ فالتنفس هو كل ما أستطيعه.

لم يدرِ بي مخلوق حتى الليلة الرابعة حينما شعرت بحوافر غلاظ تدب الأرض إلى جانبي، ثم رأيت رمحًا يقطر دمًا وتفوح منه رائحته، راح يقترب من جسدي وقد ظننته أتى لينغرس؛ والشيء الغريب بعد ذلك هو أنه لم ينغرس. أردت إغلاق عينَيّ من الخشية، لكن حتى تلك لا أقوى على فعلها، مر الرمح فوقي وصاحبه آرتميس أزرق به شيء من السواد، وهو أكبر من الآرتميس الأحمر وأغلظ، وله أجنحة تعتبر صغيرة مقارنةً بضخامة جسده، راح يرف بها وهو يشمني ويتفحصني، فتطايرت على إثرها ملابسي الفضفاضة وتطاير العشب، وهاجت أوراق الأشجار المتساقطة حديثًا، وراحت تتنقل بهوادة من مكان لمكان.

لم يغرس الآرتميس الأزرق ذو الأجنحة الصغيرة غير الطائر رمحه في جسدي النحيل، لم يهشم بحافره الغليظ جمجمتي، لم يقطم من جسدي قطعة واحدة، وإنما اكتفى بشمّي وتفحُّصي ورحل، لعله اعتبرني صيدًا تافهًا لا يغني ولا يثمن من جوع؛ وأنا كذلك بالفعل نحيل وأنحل مَن رأيت، لعله اعتبرني مريضًا، وآثر السلامة على أكلي والتمرض بي، لعله كره رائحتي، أو لعله علم بطريقة أو أخرى أني أخص الآرتميس الذهبي، ومن الأفضل له ولغيره عدم المساس بي.. لا يهم، الذي يهم حقًا هو أنه رحل، ولم يمسسني منه سوء، اللهم ليس إلا أني قد تبولت على نفسي من الخشية لحظة ما رأيت عينيه الماكرتين الواسعتين المليئتين بالغشومية والشر...

كانت الدنيا تدور بي، وأنا ممدد على العشب متراخي الجسد كالسكير، لا أستطيع أن أرتب الأحداث في تلك اللحظة، وأقول هذا حدث ثم هذا بعده، لكني وإكمالًا للأحداث السابقة رحت مرة أخرى أسمع أصواتًا تنادي على اسمي: "دياا". فأجيب: ماذا؟ حتى تعثر أحدهم بجسدي، وقال: ها هو. وتجمع حولي أناس كُثُر، دار بينهم الحديث التالي، سأل أحدهم: ماذا حدث لوجهه؟ فأجابه آخر: لقد تعثرت به ودست عليه بقدمي.

حملوني على أكتافهم، وأنا أهذي إليهم: دعوني مكاني. وضعوني في مكان آخر أرق وأكثر دفئًا، وحينما أفقت وجدت نفسي في المنزل وقد فَتَكَ بي الجوع وكاد يقتلني، فذهبت إلى الموقد حيث يقبع الطعام، أكلت كل شيء فيه وعدت إلى الفراش، طال نومي عليه وحينما أفقت للمرة الثانية ذهبت إلى الموقد مرة أخرى، حيث يقبع الطعام أكلت كل شيء فيه وعدت مرة أخرى إلى الفراش، تكرر الأمر ثلاثين ليلة كاملة، أسمع في رقدتي صوت أبي ينتحب ويتأسف، وأسمعه في أحيان أخرى يعنف بأخي "داري سا" ويلومه. لا يصدر عني شيء حينما أفيق، وكل ما أقوم بفعله هو أني فقط آكل ثم أعود لأنام، بمرور الأيام رحت أسمع أثناء رقدتي دندنات، وأشعر بهم يسقونني وصفات أعشاب، في بعض الأحيان كان الدخان يملأ غرفتي ويخنقني أثناء نومي، لقد جرب والدي معي - حسب ما أظن- كل شيء؛ استدعى السحرة، واستدعى طبيب الأعشاب، حتى إنه استدعى الغجر لمداواتي، ولقد أرسل وفودًا للقبائل المجاورة يسألهم عن طُرقهم في المداواة.

هكذا حالي حتى أقبل صباح اليوم الأخير لي في الفراش، فذهبت إلى الموقد أكلت كل شيء فيه، لكني لم أعد تلك المرة للنوم وقفت أترقب ساعدَيَّ وألكم بهما الحائط، أتباهى بقدمَيَّ وأدب بهما الأرض إذ إنه قد ازداد حجمي وازدادت معه قوتي. هكذا حدث الأمر بمنتهى الغرابة، ولم يكلفني سوى الأكل والنوم لمدة شهر كامل، خرجت على والدي وقد بدا عليه السرور، أنا لم أدع له مجالًا للحديث ولا للسؤال، وقلت له مباشرة: أنا ذاهب لأصطاد.

أثناء جلوسه هو وأخي داري سا إلى جانب بعضهما البعض، رأيا ما أصنع وراحا يتبادلان معًا نظرات لست أميز كنهها، وأظنها خليطًا ما بين إعجاب وتساؤل واستغراب. كان "داري سا" قد أعد لنفسه حقيبة صيد، لكني أخذتها بدلًا عنه ولم أبالِ، وأخذت أيضًا درعًا وهراوة، الهراوة غليظة الرأس مطرزة بالمعادن الحادة، والدرع معدني من الجوانب وباقي هيكله من الخشب، تتوسطه أسطوانة معدنية وتخرج منها حربة قصيرة وحادة.

حملت كل شيء، الحقيبة على ظهري والهراوة في يمناي والدرع في يساري، وخرجت عليهم، فازدادت نظراتهم حدة وغرابة.

لم يطل عليّ الوقت حتى عدت إليهم مسرعًا بجثة آرتميس أحمر، لم يكلفني صيده جهدًا، وجدته لحظة خروجي على أطراف الغابة قد ضل قطيعه، لعله حينها كان قد فَتَكَ به الجوع؛ لأنه سارع نحوي لحظة ما رآني، هو الجوع دفعه إليّ أو الخوف وشعوره من ناحيتي بالتهديد.

تركته يقترب، وحينما فعل وصوّب رمحه نحوي، وظن وظننت أنه يخترقني، تناحيت وقفزت إلى ظهره، وحينما فعلت ذلك وامتطيته سقط مني درعي وهراوتي، لم أجد ما أصيبه به، فرحت ألكمه بكلتا يدَيّ على الجزء الرقيق من رقبته، يتوسط ذلك الجزء الرقيق منطقة منتفخة تشبه الكيس الصغير أصبتها بواحدة من لكماتي العديدة ففرغت مما يملئها، ونتيجةً لتلك اللكمة سقط الآرتميس البغيض على الأرض لما أصبته بها وأسقطني، سقط مغشيًا عليه، ولا يقوى على الحراك، لقد كان مغلقًا عينيْه كما النائم، ولست أراه إلا يتنفس.

طريقة جديدة للقضاء على صغار الآرتميس قادتني إليها شجاعتي وروح المغامرة داخلي لا أكثر، طريقة جديدة لو أخبرت بها قومي لزاد احترامهم لي ورفعوني على الأعناق، فإنه لم يخبر أحدهم من قبل أنه تمكن من آرتميس دون اللجوء إلى قتله، لم يخبر أحد في تاريخ القبيلة أنه امتطى آرتميسًا أو جعله يغشى عليه! وبلكمةٍ واحدة!

ما زال قلبي ينبض بالطاقة ولم يفرغ منها، وما زال جسدي بعد قبضي على حيوان الآرتميس به الكثير من القوة والنشاط، جذعي ممشوق ومتصلب كما الشجرة، يداي غليظتان محكمتان والعروق فيهما نافرة، أروح وأجيء بلا هوادة ولست أقبل بالهدوء أو الجلوس.

خرجت إلى ساحة نزالات قومي أطالبهم بالقتال، أولًا قدموا إليّ مستهزئين، لكني أسقطتهم واحدًا تلو الآخر، وكلما يسقط أحدهم ينادي على آخر يظنه أقوى منه ومني، لكنه يسقط كغيره... وعلى هذا انتشرت سيرتي بينهم وراحوا يرددون اسمي كما لو يعرفونه للمرة الأولى، توالت الأيام بعد ذلك، ولم يقنعني صيد آرتميس الأحمر، فخرجت لاصطياد آرتميس أزرق، لم يعترض طريقي أحد ولم يحدثني في خطورة الأمر أحد، فقد كنت عزمت الخروج إلى الصيد وحدي على غير عادة القوم، وعلى غير عادة القوم أيضًا لم أتغنَّ في طريقي، ولم أتمهل في سيري داخل الغابة، لم أتراقص تلبيةً للأعراف والطقوس، ولم أشعل نارًا أتحلق حولها كما لم أشرب المشاريب العشبية الساخنة الباعثة على القوة، لقد كنت في صيدي وحيدًا، واحدًا، فردًا، وقد راقني ذلك وأعجبني أشد الإعجاب...

رأيت قطيعًا مكونًا من خمسة زُرق، فاقتربت منهم دون أن يشعروا، وحينما اقتربت بما فيه الكفاية اعتليت إحدى الأشجار ورحت أصخب؛ لكي يلحظوني، فأتى أحدهم يضرب الشجرة التي أنا فوقها وحينما كان تحتي مباشرة، قفزت بهراوتي على رأسه فقتلته الضربة، ثم تبعه اثنان فأعدت الكرّة عليهم وهرب بقية القطيع، ناديت أخي "داري سا" فأتى بالعربة وحملهم عليها، في ليلة ذلك اليوم احتفلت القبيلة كلها بي، ووضعوني على كرسي الشرف (وهو عرش مصنوع من جلود آرتميس وعظامه) ولقد أرادوا إعطائي لقب

"أري سا الابن" وبالطبع رفضته، فلا أريد أن يقترن اسمي ومجدي بسيرة والدي، أريد أن أكون أنا، أنا وفقط" ديا سا".

الفصل السادس

القطيع الغاضب

بعد مرور فترة كافية تلت مقابلتي لحيوان الآرتميس الذهبي، التمست احترام قومي لي وتعظيمهم لقدري، وقد أمسيت فيهم وليس منهم أحد يقبل بنزال ضدي، ذلك لأني لم أدع فيهم أحدًا لم أهزمه.

بت آكل الكثير من الطعام، وأتناوله بشكل جنوني خصوصًا لحوم آرتميس وبكميات هائلة، وكأن هذا هو الثمن الذي أدفعه نظير احتفاظي بقوتي وهيئتي تلك، ولقد نما لدي هوس بالقتل، فلم يكن يهدأ لي بال سوى ببعض رقاب آرتميس أجتثها يوميًا.

نلت احترام قومي نعم! وقبل ذلك استحققته، لكنه لا يكفيني، أريد خوفهم كذلك، ولن يحدث ما أريد إلا بطريقة واحدة أعرفها جيدًا وأترقبها على أحرّ من الجمر.

تماشيت متنزهًا في الغابة بعد رحلة صيد معتادة، ولقد رأيت أمامي قطيعًا كاملًا مهيبًا من آرتميس أحمر، فأمسكت بدرعي ورفعت هراوتي، كان عددهم هائلًا، ويزيد على عشرين. أردت الفتك بهم؛ بالتأكيد هذا لم يخفَ عليّ رغم ارتعاشي في هذا الموقف، ومع ذلك أخذني التفكير لدقائق عدة في جدوى صدامي معهم، وأوصلني تفكيري بعد أن طال بي إلى أنه لا جدوى، ولكن منذ متى ينشد المرء جدوى في أي شيء يفعله، إنما نفعل ما نفعل بدافع من روح

المغامرة داخلنا.. نفعل الأفاعيل دفعًا للسأم والملل، ونفعلها ليقول الآخرون أنا قد فعلنا، وهذا عدد لم ولن يقدر عليه صياد واحد أبدًا، ولإن أصبت منهم العدد الذي أرجوه، ليسمعن بنبأ هذه الوقعة كل الصيادين، وليبقى لي بينهم من بعدها شأنٌ عظيم.

الآرتميس الأحمر

لم تعد لدي نفس الرهبة لذلك المخلوق الوضيع، ولقد اكتشفت أني في الماضي القريب كنت أجله، لكن بعد أن نلت رقاب ثلاثة من آرتميس الأزرق لم يعد الأحمر، الضعيف، الوضيع، الغبي، ذا أهمية بالنسبة لي، ولا يشعرني بعدُ بخوف.

تنبهوا جميعًا لوجودي لحظة ما رأوني، فعدلوا اتجاههم صوبي، هزوا رؤوسهم معًا هزاتٍ قاسية، وضبطوا رماحهم اتجاهي حتى أحسستها -رغم المسافة بيني وبينهم- تخترقني، نفثوا بأنوفهم نفثاتٍ حانقة، أظهروا لي أسنانهم القصيرة الغليظة البيضاء التي لا تسوس، وعلى وجوههم جميعًا جلية ولا تخفى؛ نظرة غباء. راحوا ينفثون عليّ بحنق استعدادًا لهجوم، وقد كنت أعد هراوتي، وأنا أتقدم إليهم غير آبه، مرددًا عبارة والدي: المجد للصيادين.

تفصلني عنهم –ولحسن حظي- مجموعة من الأشجار المتشابكة التي لن تعين كل هذا العدد على المرور ناحيتي في وقتٍ واحد؛ وذلك ما فطنت له، وكنت أعول عليه، ولم يفطنوا.

قابلني فوج أول استطاع المرور، رفعت هراوتي الثقيلة حد الموت عاليًا وأسقطتها على جمجمة أولهم وأشجعهم وأغباهم، فانغرست جمجمته على إثر الضربة وحتى منتصفها في أرض الغابة المطينة بفعل أمطارٍ قد سقطت منذ ساعات، تفرق رفاقه من حمر الآرتميس البغيض إلى اليمين وإلى اليسار، هاجماني في وقتٍ واحد، تنحّيت اتقاء الضربة، فضربا بعضيهما، وغرس كلٌ منهما رمحه في جمجمة رفيقه، ضربة لم يطِبْ لأي منهما بعدها عيشٌ فماتا.

ما كدت أفيق من فرحتي فيهما حتى باغتتني ضربة من الخلف، لم يصبني الرمح في مؤخرتي حيث أراد ضربي اللعين، ومرّت بدلًامن ذلك من بين قدمَيّ، طحتُ في الهواء، وأخذت أتقلب على غير هدى، وما استقريت حتى وجدته يركض ووجدتني أمتطيه، وجهت لكمة مغتاظة إلى كيسه المنتفخ خلف عنقه، ففرغ مما فيه، وغشي الآرتميس البغيض على نفسه، لا فرق بينه وبين من مات.

غشي على نفسه وسقط زاحفًا على العشب، وسقطت أنا سقطة مدوية، أخذت أتقلب، ولم أكد أستقر حتى وجدتها أمامي، وكأنها كانت في انتظاري؛ هراوتي...

حملتها، شددت قبضتي عليها، ورحت بها أفتك بهم وأدمرهم، لقد أفرغت بهم غيظي حتى شعرت بتحطم عظامهم على رأس هراوتي، كنت أضرب ويختلط صياحي بصراخهم، عرقي بدمائهم، غيظي وقوتي بخوفهم وضعفهم...

نلت من عدد كافٍ منهم، فلحظتهم يتراجعون، تراجعوا بمنظر مهيب ملأني غرورًا وكبرًا، وحينما استدرت لأنظر خلفي رأيت ماجعلهم يتراجعون، ورأيت ما أعاد الخوف إلى قلبي وذكرني بما كنت عليه من ضعف، لقد كان آرتميسًا طائرًا، ذا بنية قوية تبرز من مفاصله العضلات وجسد أسود، وكذلك عيون حمراء أوجدت لدي رغبة في الصراخ، وللمرة الثانية في حياتي، كدت أظن نفسي أموت، فأمات ذلك الظن أي أمل لدي في الهروب، حيث إن الآرتميس الرهيب أمامي لا تفصله عني سوى خطوات قليلة، ولم يكن هناك بدٌ من مواجهته... ومواجهته لا تعني لي أو لغيري إلا شيئًا واحدًا.

تغلبت على خوفي منه بتيقني من أجلي، فإن كنت ميتًا لا محالة؛ ما جدوى الخوف؟ ولم أهابه ولست أهاب الموت، وهو الذي أحق منه بأن أهابه! رغم عظم هيئته، واكتمال هيبته، وتمام الفزع منه... قاتلته وقاتلني، صارعته وصارعني، نفث استعدادًا للهجوم وأسرع بقوة مشهرًا رمحه، تفاديته وضربته على جناحه، وحينما أصبحت خلفه ضربني بقدميْه بقوة أطاحت بي في الهواء، وألصقتني في إحدى الأشجار، عيناه هما مصدر الخوف منه والهلع، واسعتان، حمراوان، يتّقدان ذكاءً، ويشعّان بالغدر والمراوغة، غريبتان وأغرب ما فيهما أني حينما نظرت إليهما اعتقدتهما عينيْ رجل وما زلت.

أرهقته وأرهقني، تفاديته عدة مرات، وكاد في إحداها برمحه أن يقسمني إلى نصفين، أنزلت هراوتي أكثر من خمس مرات على رأسه

ولكن يمنعه كبره من السقوط، اعتليت إحدى الأشجار، وكان أحد جناحيه مصابًا، وكلما يحاول أن يصلني طائرًا لا يتعدى طيرانه سوى قفزة، لكنها كانت تعينه على أن يلحق بي، كان يقفز وكنت بهراوتي أصدّه، حتى تعبت قدماه فقفزت على رأسه من أعلى الشجرة، وضربته ضربة تحطمت بها هراوتي، وكذلك تحطمت بها رأسه.

وقفت وهو إلى جانبي، العرق يتصبب مني لأجل مجهودٍ بذلته، رائحتي عطنة ولها لسعة، أظنها من شدة خوفي وازدياد اضطرابي قد فاحت فوحًا شديدًا، خرج الدم الدافئ وانبسط على عشب الغابة الأخضر فاختلط مع ما فيه من ماء المطر، جسده مرتخٍ، وجمجمته العنيدة مثقوبة.

نعم... قد مات اللعين، وبعد موته لست أعلم ما أنا بفاعل! هل أحزن؟ أسرّ؟ أرقص حيث يرقد مثخنًا أم ماذا؟ فإنه أمر لعظمه قد اختلطت بسببه مشاعري عليّ، فلست أتحكم بها، ولست حتى أميزها.

الفصل السابع

نزال الأشبال

قد يعيش المرء عمرًا كاملًا وهو في انتظار هدف يحرزه أو إنجاز يحققه، لكي يسمو بفضله ويطيب خاطرًا به هو ومن حوله، وحينما يصيب ذلك الذي رمى إليه لا يجد له عند الناس فهمًا أو قبولًا، ويجدهم وقد ألفوا عيشهم وقنعوا بيومهم، لا يريدون لجديد أن يطرق بابهم، ويوقظ منامهم لما فيه من المخاطرة، حتى ولو بدا أنه يحمل بقدومه رفعة شأن وطيب خاطر، وخيرًا.

هذا ماحدث، وما لم أظنه يحدث بيني وبين قومي، ظننت أني إذا أظهرت شجاعة، وقوة، وإقدامًا، لم يظهرهم أحد منهم قبلي ارتضوا ذلك مني وشكروني عليه، إلا أن العكس هو ما حدث بعد قتلي للآرتميس الطائر.

لكن... ألم يعيبوا عليّ حينما كنت جبانًا، وليس فيهم من هو أحط مني شأنًا، أو أقل مني جسارةً وعزيمة! بلى قد عابوا عليّ، واحتقروني وعايروني. وإني قد عزمت يوم ما رأيت الآرتس الذهبي أني سوف أبلغ من القوة والشجاعة مبلغًا يحتقرون معه أنفسهم، ويسفهون لأجله كل ما قد بلغوه قبلي من مجدٍ وعز ورفعة.

لم يحتفل بي قومي ولم يكرموني، ولقد امتلأوا خوفًا ورعبًا منذ اللحظة التي رفعت فيها الغطاء عن رأس آرتميس الطائر.

في اليوم التالي رقدت من الإعياء لشدة ما بذلت من عرق ومجهود، وقد عزمت على ألا أخرج للصيد ذلك اليوم مهما حدث... لكن أخرجني من المنزل صوت صراخ، أحد الصيادين مغطى بالدم وينتفض في عدْوه كمن به جنون، راح يركض اتجاه منزلنا، وقد حسبته ينادي عليّ أنا دون غيري، سقط أمام الناس وأخذ يقول وقد تملكه الهلع: لقد تحدثوا، لقد تحدثوا كما البشر.

أصاب الناس خوفه، فتركوا بينهم وبينه مسافة وسألوه عما يتحدث، فأعاد حديثه بنفس الطريقة الجنونية قائلًا: إنه آرتميس الطائر، قتلنا جميعًا، كل من خرجوا للصيد ماتوا، ما عداي، ويقول اتركوا لنا "ديا سا" نريد "ديا سا". ثم نظر إلي وقد ظننته يرجوني، تصنعت الصلابة، ثم طلبت ممن حضر مقالته من صيادين أن يأخذوه فيداووا جرحه، ويخففوا من هلعه، ويطعموه ويشربوه، قلت لهم ذلك فقبلوه مني لشدة بأسي في الأيام الأخيرة، ولمكانتي بينهم.

لقد كنت بما قاله هذا الرجل أكثرهم خوفًا، فبعد مواجهتي الأخيرة مع الآرتميس الطائر لم أكن أنوي إعادة الكرة، فأنا أعلم أنه لم ينجدني منه سوى الحظ ولا شيء آخر كان سببًا في تغلبي عليه، الآن يقول أنهم يريدون مواجهتي... لا، لن أعود إلى مكانهم في الغابة مرة أخرى، وإلا كان فيها موتي.

لقد قتل الآرتميس في ذلك اليوم تسعة من أقوى صيادي القبيلة وأمهرهم، وكان الناس بعدها يجتمعون ويتحدثون من خلفي،

وبالطبع عنوني أنا بأحاديثهم، وفي نفس الليلة أفزعنا نفس الصراخ، فخرجنا ليقال لنا أن آرتميس الطائر اختطف رجلين وامرأة، ولقد تحدثوا إلى أحد الصيادين وتركوا معه رسالة مفادها أنهم يريدون "ديا سا".

لم يترك قوم آلسا في هذا الأمر مقالة تؤجل إلى الغد، ففي نفس تلك الليلة اجتمعوا عليّ وأخبروني أنهم يريدونني أن أذهب إلى مخلوقات الآرتميس وألبّي لهم طلبهم، وعندما رفضت اقترحوا نزالًا تكون غلبة الرأي فيه لمن غلب، وافقتهم على الفور، فاجتمعنا كلنا وذهبنا جميعًا إلى ميدان النزالات، وحينما وصلنا تفاجأت بأن خصمي هو أخي "داري سا" هلل له القوم وناصروه عليّ، لكني تغلبت عليه، على غفلة منه دفعته دفعة سقط بها على الأرض سقطة مريعة، فصمت الجميع، لكنه وقف مرة أخرى وقد طالب بإعادة النزال.

أجمع شيوخ القبيلة أمرهم تلك المرة على أن النزال يستمر حتى الموت، فإذا متُّ أنا يحملون جسدي إلى مخلوقات الآرتميس، وإذا مات هو لم يرغمني أحد عل شيء...

لم أكن لأرفض النزال، لكني حدثت "داري سا" وطلبت منه التراجع عن النزال؛ لأنه حتمًا سيموت، إلا أنه لم يوافق، وقال لي ما لن أنساه طوال حياتي، قال : أنا رجل من قومي... أفرح بفرحهم وأحزن لحزنهم، وأطيع أمرًا فيه صلاح أمرهم، حتى لو كان موتك.

بعد قوله هذا لم يُمْسِ لدي وازع عن قتله، فإذا كان هذا رأيه فَلْنَرَ كيف ينفعه قومه، بدأ القتال.. استخدم هو هراوة وحملت أنا في يدي سيفًا، ظل يوجه الضربة تلو الأخرى وأنا أتفاداها، والحيرة تتملكني، ولست أعلم أقتله أم أدعه يقتلني؟ أصابني بهراوته منتصف صدري، فسقطت على الأرض، وهمّ عليّ بضربةٍ أخرى أراد بها تحطيم رأسي، والناس يهللون له وينصرونه على ما أثار حنقي عليه وغيظي منهم.

رفع هراوته وقبل أن ينزلها على رأسي هممت إليه وغرست سيفي في بطنه، فسقط على الأرض، وخيم الصمت على الجالسين، راح "داري سا" يتمتم ببعض الكلمات، لكني لم ألتفت إليه لانشغالي بالاحتفال في وجه المهللين كيدًا لهم، انتصبت رافعًا السيف في الهواء، وأنا أردد:"المجد للصيادين" وقد كان يكرهني الصيادون.

وأنا أحتفل أمامهم، وقعت عيناي على وجه أبي فتذكرت أنه بينهم... شعرت به يريد البكاء، فلم آبه له كما لم آبه لأي منهم،

تحرك من مقعده بينهم وتوجه نحوي زاحفًا وفي يده سيف، ثم قال ودموعه تغرقه: اذهب إلى الغابة، وامكث مع بني جلدتك فأنت منهم، ولست منا... أيها الآرتميس البغيض.

أوقفت التهليل، وأنزلت السيف... في تلك اللحظة راجعت نفسي، نظرت إلى والدي فرأيته يريد قتلي، ونظرت إلى باقي الحضور؛ لم أرَى على وجوههم سوى الكراهية فألقيت السيف، وهرولت في اتجاه الغابة. هرولت مبتعدًا ولم أنظر ورائي نظرة واحدة لعلمي أن نظرتي إليهم لن تصطدم إلا بكراهية منهم.

وقفت تحت جذع إحدى الأشجار ألهث، وتعيد ذكراي عليّ ما قاله "داري سا" قبل أن يموت، لقد قال والدم يسيل من فمه، ومن موضع طعني له في بطنه: ذلك اليوم في الغابة، لو كنت متّ ما كنت لأسامح نفسي.

قال ذلك وسقط ميتًا. كانت تلك هي اللحظة التي توقف فيها صياحهم جميعًا، وهي اللحظة التي بدأ فيها صياحي. فلقد سمعوا مقالته وسمعتها، فهموها ولم أفهمها، رقّت قلوبهم لأخي... وقلبي أنا لم يرقّ.

لقد قال ذلك وهو يموت بضربة سيفي، لقد قالها وأنا أحتفل بقتله فيالني من آرتميس بغيض، نعم آرتميس بغيض، ولا مكان لي سوى الغابة.

وقفت ورحت أعدو في الغابة أنادي بأعلى صوتي: ها أنا ذا، أين أنتم؟

ولقد قدموا من السماء، فتحت لهم ذراعَيَّ وتركتهم يقضمون أطرافي، ويتقاسموني فيما بينهم، فتحت لهم ذراعَيّ وأنا أردد: سامحني ياوالدي، سامحني "داري سا".

الفصل الثامن

موتة ثالثة

هي المرة الثالثة التي يكون الموت فيها مني بهذا القرب، هذه المرة ليس اعتقادًا مني أني أموت، بل هي حقيقة مؤكدة، رحت أتساءل حيث لم يتبقَّ لي جسد: إذًا هكذا أموت، فماذا بعد؟ انقطع الضوء عني للحظة وعاد إليّ مصحوبًا بشعور بدوار قوي، ونما داخلي شعور ليس بالهين أن تلك لحظات عشتها من قبل... هذا مكان قد كنت فيه. سمعت صوتًا غليظًا يجيبني: لا لستَ ميتًا.

نظرت إلى السماء، فإذا هي ساطعة لا تتبينها عيناي، وبعد أن فركتهما براحتَيّ قليلًا استطعت أن أميز ما أرى؛ ذو الجمجمة الحمراء واقفٌ أمامي.

لم أفكر طويلًا، وضعت وجهي في التراب وزحفت مبتعدًا عنه، وأنا أصرخ صرخات مرعبة وهيستيرية... نبهتني أصوات قهقهات عالية وضحكات طويلة، اعتدلت على ظهري، فرأيت الأحد عشر صيادًا كاملين يضحكون وفي يد أحدهم رأس آرتميس مقطوعة.

تطلعت إليهم في عجب إلا أنهم ما زالوا يتضاحكون، فازدادت حيرتي، وبطريقة وقحة أشار أحدهم إلى وجهي حتى كاد إصبعه يفقأ عيني، وقال: انظروا إلى أنفه، لقد تورم وتضاعف حجمه حينما سقط على وجهه.

بنفس القدر من الحماس، قال آخر: لقد تحول أنفه إلى اللون الأزرق. ثم سقط على الأرض من شدة الضحك وتبعه عدد منهم بلا اكتراث.

تحسست أنفي، فرأيته بالفعل متورمًا، ثم نظرت إليهم، وسألت: كيف يبدو؟

أجابني أحدهم: يبدو لي كمؤخرة آرتميس أحمر. فسقطوا جميعًاعلى الأرض ضاحكين، فضحكت أنا معهم بشدة...

لقد ضحكت

وضحكت

وضحكت

حتى سالت دموعي.

ماذا بعد.. هل عدت؟

نعم لقد عدت، عدت كما كنت تافهًا مهمشًا ضعيفًا وذليلًا، عدت وأنا أعلم أن في منتصف الغابة آرتس ذهبي ينتظرني أطلب منه حلمًا، لكني لا أريد مساعدته، فأنا بالفعل أعيش الحلم وأنعم بما أتمناه، ولست أحتاج قوة سحرية لتحقق لي شيئًا، إن كانت لدي أمنية فأنا كفيلٌ بها، وإن كان لي حلم أنا أولى به ولست أسلم عقلي أو روحي أو جسدي لشيء أو لأحد.

منذ الآن، سأحرص على أن تعلق نصيحة والدي في أذني، فلا تفارقها أبدًا، ولست فقط مرددها وذاكرها، بل أيضًا سأعمل بها، سآخذ الحذر من تلك الأشياء التي أتمناها.

- ديا سا.

ثانياً: صجر

الفصل الأول

صـــجـــر

نعم أنا صقر، ولكم أن تتخيلوا مدى فخري بذلك...

العزة والكرامة والقوة والتميز، أبدًا لا نأكل الجيف، ونصطاد أكثر المخلوقات شرًا لنقتات عليها، مثل الثعابين الفئران وغيرها، أعرف مدى شر تلك الأشياء؛ لأني رأيت مدى خوف البشر منها؛ لذلك وعلى عكس معظم أبناء جلدتي، لا أرى سببًا حقيقيًا لخوفنا من البشر، فنحن نخيف ما يخيفهم. سحقًا! بل ونأكله أيضًا.. نأكل خوفهم ونملأ به بطوننا، فلماذا قد نخاف؟

بالطبع، أنا مختلف لست مثل غيري من الصقور، وحينما أقول ذلك لا تظنن أني واقع في الأسر، وأعاني من مرض حب البشر الذي يذيقونه للبعض منا...نعم لست واقعًا في الأسر، لكني ولسوء حظي، لا أستطيع قول الأمر نفسه عن والدي، فبالإضافة لما ذكرته سابقًا عن الصقور، نحن كذلك نحب أن نبني الأعشاش، نحب أن نزيد، ونحب أن يكون لنا رفقة سفر تؤنسنا في هجرتنا الموسمية...

كنا عائدين من الأراضي الخضراء الجنوبية "إفريقيا" أنا وأخي لنلحق بوالدَيّ في نقطة أعلمونا بها فوق قمة جبل ساحل البحر الأحمر، نختار الصحاري دومًا في هجرتنا لنتجنب اصطياد البشر لنا، مؤكد نعلم بخروج فرق منهم إلى خطوط سيرنا للاصطياد، ومع ذلك، فإنها أفضل من خطوط السير فوق مدنهم، حيث يتطلع كل شيء

يمشي على الأرض إليك ويرغب بموتك، وأفضل من خطوط سير أعالي البحار، حيث مساحات الماء الشاسعة التي لا تَأْوِي ملاجئ لتريحنا من عناء السفر، فليست لدينا نحن الصقور ميزة الوقوف على الماء، أو حتى السباحة "لسنا أسماكًا لعينة، صحيح؟" اقتربنا من مكان اللقاء بعد رحلة سفر مرهقة تجنبنا فيها البشر، وأصوات البشر، وروائح للبشر حملتها إلينا الرياح، وميزت أنا ثم أخي أصوات والدَيّ... وحين اقتربنا كانا بالفعل واقعان في الأسر، أخي ولأنه الأقوى والأسرع، سبقني إلى هناك، واشتبك مع المعتدين لمدة خمس دقائق كانت مدة كافية تجعلهم يائسين من أسره لمدى قوته وبأسه، ولذلك أردوه بطلق ناري، ولما نظرت إلى أخي للمرة الأخير كان جثة هامدة بلا رأس... أفتكر تلك اللحظات بأنها أول مناسبة تجمعني بأسلحة البشر، لم أفهم حينها ما يحدث له، واعتقدت رأسه ينفجر غضبًا أو حزنًا على والدينا.

وضعوا عصابات على أعين والدَيّ مصنوعة من القطن، ودفنوهما في الرمال حتى العنق، وأخذوا يسقطون قطرات الماء على الرمال حولهما لتهدئتهما وتهيئتهما للاستئناس، غطت العصابة الخاصة بأوغاد البشر السمع والبصر لوالدَيّ، ومع ذلك، أظنها لم تمنع أمي من أن تشهد موت أخي، غريزيًا علمت بذلك ولم تحتمل الأسر فماتت، لعلها ظنتني متُّ أنا أيضًا، شاهدتهم يدفنوها في الرمال إلى جانب أخي، وبكيت عليهما بحرقة، بكيت مابكيت ومع ذلك لم يكن مثل بكائي على أبي، تبعت حثالة البشر إلى حيث استقروا، ومن

على موضع عالٍ محجوب عنهم لمدة أشهر، كنت أشاهد عملية التحويل والاستئناس التي يمارسونها على والدي، حتى إذا ما أطلقوه ذات يوم خلف فريسةٍ يأتي بها، ويعود إلى البشر "لا يهرب" قطعت عليه الطريق مرة... عرفني ولم يلتفت، ومرة ثانية عرفني ولم يلتفت، وقطعت عليه الطريق للمرة الثالثة، وتعمدت إيقافه، فحاول مهاجمتي؛ لأني أؤخره من أن يظفر بفريسة لسيده، كان ذلك آخر عهدي به، وكان ذلك يوم بكيت وآخر بكاء بكيته في حياتي حتى هذه اللحظة... عدت إلى خط السير الذي كنا سنأخذه جميعًا كعائلة، خط السير المنتهي بالأراضي الخضراء الشمالية "أوروبا" اعتادت أمي أن تقول عن ذلك "نستوطن خضار الشمال، ونتركها شتاءً إلى خضار الجنوب، ولا شيء بينهما سوى الطريق" أعتقدها نسيت أن تقول وخرائب البشر بينهما، عدت إلى المسار وحدي مستندًا إلى غريزتي للنجاة في هجرتي الأولى إلى الشمال، أتاح لي الفراغ الذي قضيته في تلك الهجرة الكثير والكثير من التفكير...

الفصل الثاني

حكيم سرب الشمال

من الممكن أن تقول لصقر حديث الولادة أنه يستطيع السير على الماء، أن تخبره أنه من الممكن أن يدخل إلى نار مستعرة دون أن يحترق ريشه ويسودّ جلده، دون أن يصبح وجبة يشتهيها البشر، دون أن يموت، وسيصدقك... حبًا بالله! إن لم تكن تنوي تصديقي ائتني بفرخ صغير الآن، وسأجعله يأكل الجيفة النتنة أمام عينيك. ولكننا لانفعل ذلك، بل نؤهلهم للعيش في البرية، نعلمهم أن يعتمدوا على أنفسهم، وحينما يأتي سؤال استفساري من أحدهم نجيبه بما نعرف، وبما يحتاج أن يعرف، ففي عمري الطويل الذي عشته نسبة إلى أعمارنا نحن الصقور، ونظرًاإلى ما لدي من خبرة أستطيع أن أجزم أن صقرًا كهذا سيجلب الموت لنفسه، فعلى عكس أي صقر آخر نعرفه أو نسمع عنه، لم يكن لدى هذا من يرشده في صغره، لا أصدقاء، لا عائلة، وفي هجرته التي قطعها وحيدًا كل تلك المسافة كان يكون انطباعه الخاص لكل ما تقع عينه عليه، فحينما يرى ثعبانًا لم يقف بجانبه من يقول له "مهلًا، هذا ثعبان... قد يقتلك" لا، لقد كان وحيدًا، ولم يعرف على الأرجح معنى الثعبان إلا باختلاطه بالصقور الأخرى فيما بعد، ولكل ذلك تأثير سيئ ظهر عليه يوم احتضناه، وجعلناه واحدًا منا. كان يجب أن أحذر منه منذ البداية، وكان يجب أن أدرك أي مصيبة مقبلة علينا... أمثاله لا

ينجون مع مرور الوقت، ولا يمكن لأي صقر أن ينجو إلا أن يكون صقرًا، صقر بالطريقة العادية التقليدية التي نتبعها جميعًا واحدًا تلو الآخر ابن يلي أبًا، صقر يلي صقرًا، ولما لم يكن مقدرًا لهذا بالذات أن يموت بعد، فإنه يجلب الموت لكل شيء آخر يقف بجانبه، ولما كان شذوذه وغرابة أطواره واختلافه يسببون العدوى لباقي الأفراخ، لم نبقِ عليه، وكنا على وشك قتله هو ومن معه، ولولا هروبه المفاجئ لكنا قتلناه، لا أشعر بندم على ما أقوله الآن، كما لم أندم على القرار الذي أعطيته لقتله، يتمثل ندمي الوحيد في استقبالي له وقت ما كان على نبذه ورفضه، يتمثل ندمي في عدم إمساكي به قبل الهرب، وفي عدم قتله... بعد.

الفصل الثالث

صـــجـــر

سعدت للغاية لوجود روابط بيني وبين بقية الصقور، ذلك اليوم حينما أضيئت عيناي على رؤية المساحات الخضراء، لم يكن من الصعب إيجادهم، فحيثما تذهب إلى مكان في سمائه شيء يطير، ستجد حتمًا صقرًا يحكم قبضته على تلك السماء، إنك لا تذهب إلى مكان ما لتمر أولًا بأراذل الكائنات فيه، لا، ولكنك تسأل أول ما تسأل عن القوي الذي يتحكم في ذلك المكان، وبالنسبة لنا كصقور نحن على الدوام ذلك القوي، شرط أن يخلو ذلك المكان من البشر، ولم يكن مكاننا هذا لسوء طالعه يخلو منهم، ما أصابني بالغيظ الشديد، ما أدهشني ذلك بقدر ما أدهشني تقبل الصقور الأخرى لوجود البشر بينهم.

بدايةً.. جعلوني فردًا في أحد أسراب الصيد، جمعنا قائد للمجموعة حوله أعلى شجرة، وكان الهدف ثعبانًا أسفلها، وبمجرد أن حرك ذلك الأبله منقاره عرفت عدم أهليته للصيد"الثعبان كائن خطير قاقاقاقاقا... سنحيط به جميعًا قاقاقا" لم يكن في حاجة إلى قول المزيد، تركتهم خلفي، ثم حلقت وحيدًا إلى الثعبان، وأطبقت بمخالبي على رأسه، وألقيت به فوق أسلاكٍ كهربائية قريبة، أضاء الماكر وكأنه قطعة من الشمس، سقط على الأرض ساكنًا، محنطًا، محترقًا يتصاعد الدخان من جسده، وجهه مضيء، عيناه جاحظتان،

وفمه مفتوح على آخره من الصدمة، كانت نفس الأعراض ظاهرةً على الصقور أعلى الشجرة على الرغم من أنهم لم يمسسوا الكهرباء...

الصقر الأول هامسًا في أذني: كيف فعلتها؟

أنا بعدم مبالاة: إنها الكهرباء... ليست شيئًا ذا أهمية، ومع ذلك خطيرة جدًا، رأيتها من قبل تحول صفًا من الغربان إلى قطع من الفحم أشد سوادًا من طين الأرض.

الصقر الثاني بنبرة تحدٍ"أنثى صقر": كان بإمكان ذلك الثعبان قتلك!

_ قتلي!... ليس وبطنه منتفخ هكذا، لا أظنه ابتلع ماهو أقل من جرذ.

الصقر الثالث وبرغبة شديدة: نريد أن نتعلم منك، علمنا.

فردت أجنحتي وإلى أعلى شجرة موجودة حلقت، صارخًا فيهم: اتبعوني.

الفصل الرابع
الثعبان المتفحم

دماء دماء دماء، لا أرغب سوى في الدماء، عائلة كاملة من الثعابين تختفي ولا يبقى منهم إلا ثعبان واحد فقط، تصيبني الدهشة حينما أجد فسحةً في ذلك الجُحر، وهو الذي كان بجمعنا يضيق، شيء ما يتربص بالثعابين، ويريدها أن تختفي هذا أو أن الأوغاد قد وجدوا جحرًا أفضل ولا يخبروني به، كان الجحر بوجودهم أكثر دفئًا، ومع ذلك، لن أقول أني أفتقدهم؛ لأني مازلت أذكر ذلك اليوم؛ يوم وقف طائر جارح أمام الجحر شتاءً في وقت ندرة في الطعام والشراب، فقبضت عليه وغرزت أنيابي الباردة في رقبته تبخ السم إلى أعصابه، أصابني مخلب ذلك اللعين في إحدى عينَيّ، وفقدت إحساسي بها، ومنذ ذلك الحين أصبحت ثعبانًا أعور، لا يرى إلا بجانب واحد فقط من وجهه، وحينما سحبته إلى داخل الجحر أجبروني أن أشاركهم فيه على الرغم من أن ذلك الطائر كان فريستي وحدي، وليس مفترضًا أن يشاركوني فيه... فريسة كلفتني الكثير.

بسبب فعلتهم تلك مازلت ناقمًاعليهم، ولن أقول أبدًا أني أفتقدهم... أمطار أمطار أمطار، أجبرتني الأمطار اللعينة على الخروج ومواجهة البرد، أكره البرد، ولا شيء يستطيع أن يجعلني أشعر بالدفء الذي أشعر به حينما أشرب الدماء، دماء دماء دماء، ولا أرغب سوى في الدماء.

لو فقط يمر جرذ من أمامي الآن، أرنب، أو حتى ضفدع، سيكون الضفدع فريسة سهلة، وأقل تعقيدًا... يشعرني البرد بالخدر في أطرافي، ولن أستطيع في الوقت الحالي السعي إلى فريسة، فقط ضفدع ضفدع ضفدع، أريد أن يمر من أمامي ضفدع، وليس طائرٍ آخر، بالطبع ماكنت لأخاطر بخسارة العين الوحيدة التي أملكها، رأيت شيئًا ما يهم بالمرور من أمامي، مددت رأسي إليه وابتلعته، لم أستطع رؤيته جيدًا، ولا أعلم حقيقةً ما يكون، ولا أريد صراحةً أن أعلم، يكفيني فقط أنه قد أغناني عما كان بي من جوع.

أشعر بالبرد، أكره البرد، دماء دماء دماء ولا أرغب سوى في الدماء... ماهذا بالأعلى؟ هل هذا صقر؟ لا لا، دعني وشأني... قبضته دافئة على جسدي تنسيني هول الموقف، أستطيع أن أستشعر تدفق الدماء في شراييني، دماء دماء دماء، أنا أشعر بوجود دماء، لو أعلم أنك لن تأكلني أيها الصقر لطلبت منك أن تجلس عليّ بجسدك الدافئ، لطلبت منك أن تمسك بي مدى الحياة، لطلبت منك أن تمسكني أبدًا، أنا لا أطلب سوى الدفء، ودماء دماء دماء، لا أرغب سوى في الدماء.

لكن! مهلًا، لماذا تحررني الآن؟ أنا حتى لم أقاوم، ما تلك الأسلاك؟ أعععععععع أع أع.

الفصل الخامس

صـــجـــر

ليس من الصائب أبدًا تفويت مثل تلك المشاهد، رؤية تلك الثعابين وهي تطير في الهواء لتتعذب بتلك الكهرباء، ثم تسقط مصعوقة، محروقة، مطهوة، تفيح منها الروائح الطيبة الأخاذة "مثالية للأكل" ذلك الزاحف الخسيس يستحقها، مع أني لست متيقنًا من نزولها جميعًا على الأرض، وما زلت أتكهن بأن تلك الجلود المتفحمة المتدلية من على أسلاك الكهرباء هي في حقيقة الأمر ثعابين، تلك مجموعة من الصقور، تود فعلًا أن تتعلم؛ "الوغد الأبيض" أطاح وحده بجحر ثعابين كامل بشيوخه وشبابه وصغاره، لم يرحم ذلك الخسيس الممسوس أحدًا، كان بينهم ثعبان حديث الولادة ظنناه جميعًا دودة، التقطها من الأرض وغد أبيض اللون ناتج عن تزاوج صقر حر مع وكري، طويل البنية نحيل الجسد، ساقان قصيرتان بهما أطول مخالب يمكن أن تراها لصقر.. وأطاح "ذو الرأس الأحمر" بثعبانين اثنين فقط، انتشلهما دفعة واحدة بهدوء ولا يكاد أحدنا يصدق، قام بإلقائهما، ثم مرَّا على الأسلاك الصاعقة وسقطا على الأرض يحتضنان بعضهما، أظنه سَطَا عليهما في لحظة تزاوج حرجة، ماكنت لأحلم أبدًا بتلميذ نجيب كهذا، ناتج ذو الرأس الأحمر عن تزاوج صقر شاهين مع وكري. رفاق! لا أدري ما هي مشكلة طيور الوكري تلك! "أظنها تريد التكاثر مع الجميع".. ثالثهم كانت "شيهانة" هكذا أرادتنا أن نناديها، وهكذا تدعي أنثى الشاهين شرقًا

من حيث أتت هي، ناتجة عن تزاوج صقري شاهين... شاهين فقط "تخيلوا ذلك!" أظنها مناسبة، لم يتسنَّ لإحدى طيور الوكري حضورها، كانت أول من يقوم بخطف الثعابين في المجموعة، أخذت تعليماتي بحرص، ثم حلقت وقد كفاها ثعبان واحد فقط ولم ترغب في المزيد... أثناء انهماكنا في الصيد صادفنا على الأرض خمسة أفراخ حديثي الولادة، سقطوا واحدًا تلو الآخر من أعشاشهم، وقد تُرِكوا عمدًا ليكونوا وحدهم على الأرض في واحدة من أهم طقوس تعلم الطيران المتبعة، توقفت عندهم: لا يمكن أن ندعهم هكذا.

رد الوغد الأبيض: إنه القانون.

أجابت شيهانة بنبرة عتاب: أسبوعان يتعلمون فيهما الطيران، أقول لن ينجو نصفهم بحلول ذلك الوقت.

الوغد الأبيض مرة أخرى: إنه القانون.

ثم ذو الرأس الأحمر أخيرًا وبنبرة هادئة لم يقل سوى تلك الجملة: علمهم أنت الطيران.

ذلك النصف وكري النصف شاهيني الوغد القصير؛ كيف له أن يعلم بما أفكر؟ أخذها من على منقاري، أدرت مقدمتي ناحيتهم، رفعت رأسي إلى أعلى، رفرفت بأجنحتي، لكني لم أطير وقلت: افعلوا ما أفعل، سننظف المكان من القوارض، الكائنات السامة، وكل شيء آخر ليس له اسم الصقر، تلك مهمتي أنا وذو الرأس الأحمر، أما أنتما، شيهانة والوغد الأبيض ستجلبان ما تبقى من الثعابين... سيكون ذلك غذاءَهم حتى ينمو لهم الريش.

الفصل السادس

غراب ذكي

إن إمكانية مصادفتك لطائر بومٍ واحد فقط شجاع بما فيه الكفاية ليخرج نهارًا بحثًا عن صيده كأي طائر جارح آخر لديه مبدأ،هي في حقيقة الأمر منعدمة، كما أنك لن تصادف في عمرك كله غرابًا واحدًا فقط يتسم بالغباء، معلوم أننا نتمتع بالذكاء نحصل على فرائسنا بالخدعة والحيلة، ومع ذلك، لم نكن معروفين أبدًا بالجبن، ففي منطقتنا تلك، وفي سبيل سيطرتنا عليها، ناصبنا العداء للصقور وطردناها، والنسور وتملقناها حتى مالوا لنا وَائتمَنُونا، فنحرنا أعناقهم على غفلة منهم، ليست تلك بالخسة ولا بالندالة، إنما هي الأفعال الضرورية التي دفعتنا إليها دفعًا رغبتنا في النجاة، فللنسر ضراوته، وخسته، جسده العملاق مفتول العضلات، وللصقر شجاعته، ونبله، وقوته الاستثنائية حتى مع صغر حجمه نسبة إلى النسر، ولطيور البوم حذرها وجبنها، وعيشها ليلًا في وقت غفلةٍ من كل شيء قد يناصبها العداء، ويتمنى لها الموت، ولنا نحن الغربان الألمعية والذكاء، وسعة الحيلة.

في منطقتنا تلك، والتي لم يعد ينازعنا عليها منذ مدة سوى البوم، لنا فيها الحكم، ولنا بالعمل الشاق وتدبير السنين كل الوصاية على سمائها وأرضها مسيرة نصف يوم، وعلى عكس الغباء المتعمد الذي تظهره بعض الجوارح في معاداتها للبشر، ليست لدينا نحن الغربان

أي نية في ذلك، وإنما يروننا فيقولون تلك غربان، ونراهم فنقول أولئك بشر، لا حاجة لهم بنا، ولا حاجة لنا بهم إلا في طيور يستئنسونها على صغرها، ونخطفها على غفلةٍ منهم ونأكلها حية، وليس لأولئك المساكين معنا بأي سبيلٍ كان حيلة... ما نخشاه في ساعتنا تلك هو علمنا بوصول فوج صقور إلى بلدتنا بالأمس، نخشى أن نتركهم فيتكاثروا ليزاحموننا في منطقة سيطرتنا، ونخشى أن نهاجمهم، فيأتي على إثرهم مزيد منهم يطالبون بالثأر... صوت العقل يقول أن ننتظر أسبوعا واحدًا، إن كان خلفهم آخرون تركناهم هم والبوم في نزاع ليقضي فريق منهم على الآخر، وننفرد نحن بما عساه يتبقى منهم، وإن لم يكن خلفهم مزيد منهم، سنغير عليهم في ليلة معلومة، وسنقضي عليهم جميعًا... ليست تلك مسألة قابلة للنقاش، وليست تلك منطقة قابلة لسيطرة أي شيء آخر عليها غير الغربان، سيطرتنا على تلك المساحة هي أمر واقع وقوع المياه المالحة في البحار، وراسخ رسوخ الجبال في الصحاري... مسؤولية وكلت إلينا من أسلافنا، موطن الغربان هو إرث الغربان.

الفصل السابع

صـــجـــر

لم يخفَ علينا نحن الصقور الأربعة أن الأفراخ الخمسة التي نعتني بها الآن تتمتع بذائقة راقية وجيدة، وذلك حينما اعتادت على لحوم الثعابين المصعوقة المشوية... نَمَا للأفراخ ريشها، اشتد عودها وقويت، لكنها لم تتعلم الطيران بعد، ولما لم تعد طريقتنا في تربيتها بفائدة، وكنا حرفيًا على وشك أن نفسدهم إذ باتوا يتوقعون سقوط الطعام عليهم من السماء، ولم تبدو عليهم ظاهريًا أي رغبة للسعي على ذلك الطعام؛ ولذلك بدأنا في تجويعهم، وبدأنا في فعاليات الدرس الأول والأهم، الدرس هو: اقتل مايريد قتلك، كل مايريد أكلك، ولعلك قد تنجو. وأول شيء فعلته امتثالًا لذلك الدرس هو أني أمرت بجرذ صغير جلبه الوغد الأبيض وفي مركز دائرة مكونة من الأفراخ الخمسة قام بإلقائه، دب الجرذ بجسده على الأرض، فشعرت الأفراخ الخمسة به، ونظرت نحوه، أخذ في التململ والتقلب قبل أن ينجح في الاعتدال، اقتربت الأفراخ نحوه في هدوء، خطوة بعد خطوة، رويدًا رويدًا أخذت الدائرة تضيق به، علمت الأفراخ بقوة موقفها لما رأت ارتعاش أطرافه، وعلم الجرذ بحتمية موته فبدأ بتقييمٍ فوري للموقف، نظر خلفه فوجد طريقًا سالكًا للهرب، أصغر الصقور وأقلهم حجمًا، لم تعكس نظراته ما بدَا من إصرار وحماس على بقية إخوته الأربعة الآخرين، بدت عليه الحيرة ولم يكن يعلم ماذا يفعل، انقض الجرذ عليه وقرض عنقه، وانقضت

الأفراخ الأربعة الأخرى على الجرذ وقضمت رقبته، مات الصقر الخامس "أصغرهم" ومات معه الجرذ، ولكم أن تتخيلوا "قتله جرذا!" ليس للمسكين سبيل للنجاة، حينها سألتهم: كان يجب أن يموت، صحيح؟

أجابت شيهانة: صحيح، حينما يولد فرخ ضعيف تتركه الأم للأفراخ الأسلم في البنية ليأكلوه، لم يكن ليعيش على أي حال.

قلت حينها: غريب، كنت أنا الابن الأضعف لوالدَيّ، ولم أتعرض للأكل.

قالت شيهانة: كنت أنا الأقوى... ولكني لم آكله، كان مصابًا بعيب خلقي، وارتعبت منه، ربما في ظروف مختلفة كنت أكلته.

قال ذو الرأس الأحمر: كنت البيضة الوحيدة لوالدَيّ.

وقال الوغد الأبيض بأريحية واعتزاز: أنا أكلت أخي.

نظرنا جميعًا إليه بغضب فأضاف: ليس بالتحديد، أنا لا أذكر جيدًا... ربما كان عصفورًا أو حمامة، تعرفون الحمامة أنتم، صحيح؟

لم يجبه أحد إلا أنه استمر في الكلام: الحمامة زرقاء اللون، رقبة ذهبية، يحب بعض البشر أكلها، ولا يمكن التفريق بينها وبين أفراخ الصقور حينما تكون صغيرة كما تعلم...

نظرت في الأرض وقلت: وغد. غقغق الصقران الآخران موافقيْن فصمت.

*****

فرغ الفرخ الأكبر فيهم من قضم الجرذ أمامه، ثم توجه نحوي، أغمض عينيه واحتضني، وأخذ يحك ريشه في مخالبي، كانت تلك هي اللحظة التي أتتني فيها الفكرة، فقلت: نحن أربعة وهم أربعة...

فسأل ذو الرأس الأحمر: وماذا في ذلك؟

قلت: يأخذ كل واحد منا واحدًا منهم ويعلمه الطيران. وهكذا فعلت أنا، حملت الفرخ برقةٍ معنية بين قبضتَيّ، وحلقت به إلى مسافة لا بأس بها، ثم تركته يسقط إلى الأرض، بدايةً لم يكن يعرف ما عليه فعله، وبقية الصقور أسفله صارخةً فيه: حلق، حلق.

لم تمر وهلة على ذلك حتى استجمع زمام أمره، وأخذ يطير وسط غقغقة الصقور فرحًا به من على الأرض وخلفها الأفراخ تقلد صوتها وتهز أجنحتها ملهوفةً برغبة منها في الطيران، سقط الفرخ المحلق في منتصف طريقه فصمتت الطيور على الأرض، ثم نهض ينفض رأسه، ووسط أنظار الجميع فرد جناحيه وعاد نفس المسافة محلقًا دون مساعدة من أحد.

ارتفعت بقية الصقور من على الأرض، وراحت الأفراخ الصغيرة تتساقط من السماء طوال الأسبوع، حري بنا أن نتوقف عن فعل ذلك بعد الأربعة أيام الأولى، إلا أننا تابعنا فعلها لثلاثة أيام الأخرى بفعل العادة... حينما يفقس للصقور جمع من البيض، ولِئلا يختلط عليها أبنائها تُطلِق عليهم الأسماء حسب الحجم وصحة البنية لكل فرخٍ فيهم، فيكون أكبرهم وأقواهم "وافي" وذلك هو الذي يتبعني، وأصغر منه "ثاني" وهو ما يتبع شيهانة، وأصغر منه "ثالث" وذلك

رفيق "الوغد الأبيض" وأصغرهم جميعًا مهما كثر العدد يكون اسمه "تابع"؛ لأنه يتبع بقية إخوته، وذلك هو رابعهم ورفيقًا لرابعنا "ذو الرأس الأحمر" وعلى ترتيبهم هذا صحب كل واحد منهم واحدًا منا، وكنا جميعًا سعداء، في حياتي لم أحظَ بهذا القدر من السعادة أو لعلها تلك حياة الصقور، وأنا الذي لا يدري بها، لعلني الأكثر سعادة بين كل تلك الصقور، لكني لا أجدف في بحور الأوهام، واقعي أنا وأعلم بنزوح تلك السعادة بعيدًا عنا في ساعة ما، وكانت تلك الساعة... كنا نقتسم جميعًا فريسة ثمينة، ونقضم لحمها اللذيذ بنهم، ومنهمكين حتى انقطاع الأنفاس في غدوتنا تلك إلى درجة غفلتنا عما يقف على منطقة قريبة منا، أنثى صقر ضخمة تنظر إلينا بكراهيةٍ وحقد، تقدمت إلينا فتوقفنا عن الأكل لحظة شعورنا بها، قفزت وحاولت الهجوم فابتعدنا، فتح وافي منقاره وهجم عليها يتبعه جميع إخوته، ابتعد المعتدي عنهم، ولم تظهر عليه رغبة في القتال، قفزوا على رقبتها ونحروها وسط ذهول مني وبقية الصقور، جثم الجمود على ملامحي، وأنا أسأل: هل كانت تلك؟

قاطعتني شيهانة: والدتهم... نعم والدتهم، قتلوا والدتهم الحقيقية!

حلقت مبتعدة من الشجرة أعلانا ثلاثة صقور، بعد أن شاهدت ما حدث، ولم نفهم ردة فعلها.

قال الوغد الأبيض: القانون. نظرنا إليه، وسأله ذو الرأس الأحمر:ماذا؟

قال: القانون، أولئك الصغار قتلوا والدتهم، وستقتلهم بقية الصقور، وربما يقتلوننا معهم.

سأله ذو الرأس الأحمر: وماذا نفعل الآن؟

فأجابه: نهرب.

سألت شيهانة: نهههررب؟

فقلت أنا: سنهرب.

الفصل الثامن

الحر الأبيض

جميل أن يكون لي فرخ يتبعني وأنا الذي كنت طوال حياتي تابعًا، فرخ صغير لأعلمه وأحميه وأقف دونه في نزاعاته مع طيورٍ أخرى، أو لعله هو من يقف دوني، فرخ لطيف يصادف أنه قد قتل للتوّ أمه وهو لا يدري أنها أمه... كان آمنًا لي وفي صالحي أن تعرفني تلك الصقور باسم "الوغد الأبيض" أنا لا أعتبره اسمًا لي، حتى ولو نادونني به، فليس من الغريب أن أشعر أني لا أعرفهم وهم أصدقائي الوحيدون، فمنذ بضع سنوات كان لي اسمًا آخر، ووضع آخر.

كنت جنديًا في جيش مملكة الطيور الجارحة "المحروسة" وملكنا نسر من فصيلة النسور السوداء، كنا ندعوه جميعًا"صجر" وإذا هو نسر، فلماذا قد ندعوه صجر؟... محيرة صحيح؟ بالطبع طرق الفضول عقولنا صغارًا وطبيعي أن نسأل، يقال أنه حينما أتى أول فوج من تلك النسور منذ ثلاثمائة عامٍ مضت، كان البشر يشيرون إليه، ويقولون "صجر، صجر" ومن يومها أصبح "صجر" هو اسم للملك حتى ولو لم يكن صقر بالمعنى الحرفي للكلمة، كانت تتكون المملكة من الطيور الجارحة فقط، بوم،غربان،وصقور، إضافة إلى الأنواع الهجينة منها،ولكل فصيلٍ منهم جيش يخدم المملكة، على رأس كل جيشٍ قائد، وعلى رأس جميع القواد وزراء والوزراء دومًا من الغربان، وهو ما لم يحبه الصجر الأخير في سلالة النسور المالكة،

إذ اعتادت النسور قبله السير على توجيهات تلك الغربان لصالحها وصالح كامل المملكة حتى جاء الصجر الأخير الكاره وبشدة للغربان، فكان يوميًا يعدم غرابًا منهم بسبب ولغير سبب، مع أنه سبب واحد فقط يهم ويستحق الذكر، فهو أن وجود الغربان بجانبه كان يهين ذكاءَه، فيثير غضبه عليهم إن تجرأ أحدهم وتحدث في حضرته، ويثير غضبه مرة أخرى إذا ألمّت به مشكلة عويصة، ولم يتجرأ أحد منهم على الخروج بحلٍ لها، وهم وزراؤه وتلك الغاية من وجودهم... كنت أنا أحد أفراد كتيبة صغيرة من ذوي الدم المختلط، ففي هيئتي كاملة أنا صقر حر عن والدي، وأما عن أقدامي فهي صغيرة عن والدتي من فصيلة صقر الوكري، أما عن مخالبي الضخمة، فهي وبكل تأكيد ولضخامتها تعود لنسر، لا أعرف إن كانت علاقة لثلاثة طيور هي سبب ولادتي، أم أن لي عرقًا نسريًا لا يعلم به أحد، أيًا تكن الحقيقة فليست على قدر من الأهمية، إذ لم تخبرني أمي بها قبل أن تموت... اعتادت النسور وللحفاظ على تمسكها لملك الطيور أبدًا أن تعتني ببيضها بعيدًا عن باقي الطيور، فيخرج يوميًا أحد الوالديْن للاعتناء بالبيضة ويعود ليأخذ مكانه الآخر، ولتحظى الغربان بانتقامها وعلى غفلةٍ من النسور اختارت يومًا لم يخرج فيه أحدهما إلى البيض، لتضمن موتهما معًا، ولتضمن ضياع الفرخ من بعدهما وعدم انتقال المملكة إليه.

فعلت الغربان فعلتها الخسيسة بقتلها للنسور على غفلةٍ من كل الطيور، ونصبت نفسها على الملك، فهبت الصقور لقتالها وهربت كل البوم بعيدًا عن القتال، انتصرت الغربان في ذلك اليوم لكثرة

عددها، وانتصرت لإعدادها المسبق لجريمتها وجاهزيتها لها، ماتت كل الصقور، وأنا وحدي هربت، ماكانت تلك الغربان تصدق أعينها وهي تراني أفرّ من المعركة، ليس لإرهاقي لها على سبيل المثال، ولكن لأني صقر ولا يهرب صقر أبدًا من قتال، لو كان رآني قائد للجيش حينها لمات كمدًا، وليس تأثرًا بجراحه، أما بالنسبة لي، فأنا لا أبالي بما تعتنقه الصقور من قيمٍ ومبادئ، لم يعتبروني واحدًا منهم على الأقل، ووضعوني وسط حفنة معاقة من مختلطي النسب، ما زالت الغربان حتى الآن متحكمة في المملكة، وما زالت البوم هاربة ترسل الفرقة خلف الفرقة باحثة عن بيض النسور الضائع لعله ينجيها من بطش الغربان، قصصت ما قصصته من ذلك على رفقائي الصقور وقت تقطعت بنا السبل، وهربنا من الموت، قلت لهم أنه ملك ضائع يحتاج من يعيده، سألوا: وما المطلوب؟

قلت: نبحث عن بيض النسور، إن كان قد نجَا وفقس نخبره بما هو مقدر له ونرشده إلى ملكه، وستصطف البوم خلفه، ربما ربح معركته وحظينا عنده، ربما يصير ملكًا، ونحن له من المقربين فينصرنا على صقور سرب الشمال التي حكمت علينا بالموت، أولئك الذين لن يتوقفوا عن مطاردتنا حتى يهلكونا أو يهلكنا الطريق.

الفصل التاسع

صـــجـــر

العديد من الأسباب قد تودي بحياة أحد الصقور، وحياة الصقور عادةً لا تحتاج عادةً إلى سبب لتزهف؛ إذ تُزهَق بحكم المصير. ولن تكن مبالغة بحق لو أنا قلت أن كل شيء هنا بالخارج من شأنه قتل الصقور؛ فقد رأيت صقرًا تصعقه الكهرباء، رأيت صقرًا يصطدم بقطار ويموت، رأيت صقرًا يقتله جرذ، وآخر يقتله ثعبان،رأيت صقرًا تصيبه رصاصة وتفجر له رأسه، بل وإني حتى رأيت صقرًا يقتله صقر، ورأيت صقرًا يقع في الأسر لدى البشر، وتلك بالنسبة لي تعتبر ميتة وميتةً مخزية، وإن أنكرها الآخرون. إنك وكصقر لن تضمن حياتك حتى وإن أخذت حذرك من كل هؤلاء، فليست كل الميتات منطقية ولها أسبابها، وأضمن لك ذلك، إذ رأيت من قبل صقرًا يسقط على الأرض ويموت، حضرت أنا موقفه، وأشهد أن شيئًا لم يضايقه، أو يؤذيه، وأشهد أنه حتى لم يكن قد أدركته الشيخوخة بعد... من الممكن للصقر أيضًا أن يقتله عناده، عناده على فريسة، عناده على الطيران في ظروف مناخية ليست مناسبة، أو عناده على أشياء أقل أهمية، وليست ذا بال مثل الانتقام.

ها أنا ذا عائد مرة أخرى من حيث أتيت، وها أنا ذا مرة أخرى في العراء، نطير إلى الجنوب هربًا من اتهامات بالقتل والخطف وإفساد خمسة أفراخٍ ليسوا من صلب أي أحد منا، مات فرخ منهم وبقي

الأربعة الآخرون... طائر أنا في المقدمة خلفي الأفراخ الأربعة في هجرتهم الأولى منذ الولادة، ويطيرون خلفهم بإذن مني، تلاميذي الثلاثة، لضمان حمايتهم وعدم ضياع أحد منهم، النصف شاهيني نصف وكري "ذو الرأس الأحمر"إلى جانبه الشاهينية "شيهانة" إلى جانبها النصف حر نصف وكري "الوغد الأبيض".

أسوأ مطاردة قد تقابل صقرًا في حياته، هي مطاردة يكون هو فيها الفريسة، أسوأ من ذلك أن يطارده صقر مثله، وأكثر سوءًا أن يكون مطارده أقوى وأسرع وأكثر درايةً بأمور الطيران، مر أسبوع أول على الهرب، فبردت قلوبنا مطمئنة لخلو السماء من المعتدين، مر أسبوع ثانٍ وصرنا نخوض في مساحات صحراوية مفتوحة مترامية الأطراف، ورغم توهمنا لهياكل تطير خلفنا، لم يسعنا التأكد من أننا مُتبَعون... كانت تقطر علينا السماء بحذر قبل ساعةٍ للغروب، فأوينا إلى شق في جبل؛ لأننا لا نطير إذا ما أمطرت، ولا نطير إذا أظلمت.. تفرقنا جميعًا، كلٌ في اتجاهه، ولم نكثر الخطوات على مهلٍ لنتصيد السحالي من جحورها، أصبنا صيدًا وافرًا منها، إذ أجبرتها المياه على الخروج، فالتقفناها بأعداد وفيرة، وعدنا إلى ملجأنا نقتسمها بيننا إخوانًا، امتلأت البطون وقرت الأعين وسكنت أجسادهم جميعًا حتى لم يبقَ غيري أنا والوغد الأبيض، نظر إليّ وقال: أظننا مُتبَعِين. قلت: أشاطرك الظن.

سأل: وما العمل؟

صراحةً لم يكن سوى شيء واحد فقط يدور في خلدي، نظرت إليه وقلت: غدًا سنكمل طيراننا دونك، ستمكث أنت هنا، ولن نتقدم عنك إلا مسيرة يوم واحد، بعد ذلك سنهبط وننتظرك على قمة جبل، اليوم الذي نطيره نحن ستمكثه هنا تراقب المكان، ثم إذا انقضى اليوم تلحق بنا، ونجتمع مرة أخرى، ولنرى بأي خبر ستأتينا حينها.

قرقر الوغد الأبيض على كلماتي إيجابًا، وارتمى إلى جانب رفقائه قرير العين....

أشرقت الشمس علينا وألهبت الصخور المجاورة، نهضنا جميعًا إلا "تابع" كان مفترشًا على ظهره بنوم عميق، وفي فمه سحلية تسعى محاولة الدخول إلى جوفه، سدت حلقه وخنقته، فقام فزعًا غاضبًا، يقضم رأسها ويبصق بقية جسدها إلى الأرض، وجميعنا حوله مقرقرون... عدلنا صفنا وحلقنا، ومتمركزًا الوغد الأبيض على الأرض وحده ممتثلًا للأوامر، ومراقبًا للسماء.

*****

بالقرب من هنا تَوَارَيَا وفي حفرةٍ من الرمال جثتا أمي وأخي، وبالقرب من هنا أيضًا قُبِض على أبي وأخذوه أسيرًا، لو يجمعني لقاء آخر بهذا الوغد، سأحرص على أن تخترق مخالبي جمجمته حتى يتفرغ دمه الدافئ ويُهدَر على الرمال، ثم سأتوجه إلى سيده البشري أهبط على وجهه، أخطف عينيه وآكلهما وحدي، أستلذ بهما، وإن صحت الإشاعات ووجدت في أعين البشر لذة، فسأعيد الكرة مرة أخرى،

وأخرى، وأخرى، بل سأفعلها أبدًا حتى يهابوا رؤيتنا كما نهاب رؤيتهم، وحتى يهابوا سيرتنا كما نهاب سيرتهم، حتى يجيء يوم لا يموت فيه صقر عبثًا ولمجرد التسلية، وحتى يجيء يوم تقطع فيه الصقور هجرتها ولا تخاف على نفسها الضياع في الطريق، سيكون هذا يوم ننجو، وسيكون هذا يوم نسود.

مر يوم طيراننا على خير رغم شعورنا جماعةً بالنقص لعدم وجود الوغد الأبيض إلى جانبنا، مر يوم طيراننا على خير بجهدٍ مبذول، وهبطنا على مكان يطابق ما اتفقنا عليه أنا وهو من مواصفات مكان للقاء، وعلى الرغم من اتفاقنا على يوم واحد فقط يقضيه وحده، ثم يأتينا بعده، إلا أنه لم يوافِنَا إلا بعد مرور اليوم الثالث، وجاء حينما جاء مرفرًا بوهن وضعف، وجناح أيمن شبه مكسور... قضى الوغد الأبيض وقتًا في خدمة سرب الشمال أكثر مما قضاه أي صقر آخر فينا، عاشر فرقهم وتابع قوادهم وصياديهم، لم يرَ لحسن حظه الصقر المعتدي عليه رأي العين، لكنه ميز منه أسلوبه، حلق الوغد الأبيض إلينا لما رآنا، ثم سقط بيننا سقطة صقر أصابه طلق ناري، وقبل أن يغمى عليه قال:الخطاف، أرسلوا خلفنا الخطاف.

الصقور الخطافة هي الأقوى في السلالة، صقور في حجم نسور، لها ضراوة الضباع، وقوة الثيران، تخطف صغار الغزلان من على الأرض، وتخطف النسانيس من أعلى الأشجار، هي وفي كلمة موجزة "جبارة" سلالة نادرة لم تصلني أنا شخصيًا منها غير السيرة، مطاردنا ذلك

ليس هو من نوع الصقور الخطافة، لكنه يشبهها إلى حد كبير، ولم يطلق عليه سرب الشمال هكذا اسم من فراغ، ولم يبعثوه خلفنا إلا لثقتهم في قدراته، وأهليته لمطاردة بعيدة المدى... مطاردنا من نوع الصقور الحرة، يعتمد عليه سرب الشمال في أعمال التجسس، صقر خطير، ماكر، ومؤذٍ، حينما لمحه الوغد الأبيض في السماء وفي طرفة عين رفع الخطاف رأسه إلى أعلى، وحلق عموديًا؛ كي لا يظهر له ملامحه، أخذ يدور الوغد الأبيض في دائرة حول نفسه منتظرًا هجومه عليه، لكنه لم يره بعد تلك المرة، وحينما نظر فوقه وجد حجرًا ثقيلًا ساقطًا عليه من السماء، ناور الوغد الأبيض الحجر ليتفاداه فسقط على جناحه بدلاً من رأسه، وإن يكن لفعلته تلك دلالة، فهي أنه لا يعتزم على مواجهة، يريد فقط اقتفاء أثرنا، واتباعنا إلى حيث نستقر... ربما لا يسر الخطاف أن يحظى بقتالٍ معنا، لكن السرور سيكون من نصيبي يوم أن أجلب أنا القتال إليه.

الفصل العاشر

أبو قردان

حرب تلوح في الأفق، موت يحلق في القريب، من الغريب والمثير للحنق أن يجد الفقر والضياع طريقهما إلى تلك البلدة، وهي التي كانت مثالًا للخير، من الغريب ألا يجد البعض إجابات لأسئلتهم وهي ظاهرة أمام أعينهم ظهور الشمس نهارًا في كبد السماء... جفت الترع، جُرِدَت الأراضي الزراعية من مائها إلا ساعة الري، واختفى الدود من الأرض... ماذا عساي أفعل الآن، وكيف أجد ما يسد رمقي ورمق أفراخي الآن بعد أن اختفى الدود من الأرض، جنى الهالكون على أنفسهم حتى قَل خير الأرض، فلم يعد أبو قردان مثلي يجد الدود فيها، تلك علامات أميزها، وهي علامات لحرب تلوح في الأفق، وموتٍ يلوح في القريب.

أنظر إلى هذا الفلاح المسكين يندب حظه ويشكو العوز، وقلة الحيلة، لم أعد أنا نفسي صديقًا لفلاحين تلك القرية بعد ما حدث، لن أرقّ لحاله كما لم يرق لي، لن أرفق به كما لم يرفق بي... ها هو يتخبط في نفسه، يرفع الطين إلى رأسه ويبكي، لعله يبكي لقلة اللبن الذي لم يعد يطعم أطفاله، يتذكر هو أن نهْدين مماثلين كانا يطعمانه في الماضي هو ووالديْه وستة من إخوته، نهْدي الخير، فمنهما اللبن، ومن اللبن الجبن، والرايب، والميص، والمال، الآن لا

يملك إلا ثلاثة أطفال فقط، ولا يجد لهما قوت اليوم، يبكي، يندب حظه، وينادي والديْه في موتهما: كيف فعلتماها؟ كيف نجوتما؟ لعلى لا أريد الاقتراب منه، ولإن ظفر بي ليذبحني ويطعمني لأطفاله، فلم يعد يفرق هؤلاء بعد بين الطير الحر وطيرهم النتن المُستَأنس.

تلك بقرة ذبحوا لها ابنها أمام عينيها، جفا نَهْدَا المسكينة وتخشَّنا، لن تستطيع إعطاءهم اللبن حتى وإن أرادت، ينظر حوله مخافة سطو الطيور على المحصول، فلم تعد الفزاعات تفزعهم، ومنذ أن قرص الجوع بطونهم أيضًا لم يعد يصيبهم برهبة كالماضي، وهذا محصول يرعاه ويبيعه بمال، مال لن يشتري له قوت أيامه.... أتذكر أنا أيامًا أخرى مرت على تلك القرية، أيامًا للعز والخير الوفير، في صباح مثل هذا ما كنت لتجد فدادين الزرع تستصلح لتُقَام فوقها المنازل، كان الحمار يمشي في الطريق يخاف أن يدوس حافره الضفادع في الطريق لكثرتها، والكلاب تجري في الحقول، تقفزعلى أقدام النخيل وتأتي بالبلح، والترع صافية لا ينضب ماؤها ولاتموت أسماكها من تلوثاتٍ وسموم، ولا ترى على سطحها مثل الآن جيفة نافقة منتفخة تملأ الأرجاء بعبق نتانتها، وفي سقعة الصباح ألف صوت لألف مخلوق ينشد للحياة، فتلك الضفادع، وتلك الزرازير، والعصافير، والحمام، والصقور، والغربان، والبوم، العنيز، والجديان والخرفان، وحتى الحمير والكلاب، أما الآن فلا أسمع شيئًا، هو فقط الصمت، الفقر، الغضب، والموت... ذلك يوم أرى فيه الصقور لأول مرة منذ مدة، أرى الغربان يزداد حذرها، وأرى البوم... حسنًا أنا لا أرى البوم.

ذلك كله ليس من شأني، أنا فقط أريد الدود، سأبحث مجددًا، سأبحث هنا ولعلي أجده، ولعلي إن كنت من الناجين ألا تمسسني حرب تَلوح في الأفق، وموت يحلق في القريب.

الفصل الحادي عشر

صـــجـــر

الطريقة التي اختفى بها الخطاف فجأة بعد هجومه الغادر تجعلنا نعتقد بعدها أنه لم يعد يتبعنا، والطريقة التي هاجم الوغد الأبيض بها تجعل بقية الصقور الأخرى تعتقد أن صقرًا كهذا لا يمكن المساس به؛ إذ بالكاد تمكن بعضنا من رؤيته، ولمجرد الاقتراب منه حدث ما حدث، ماوضعني أمامهم في حيرة وحرج... تلك الأفراخ الصغيرة ومنذ ساعاتٍ فقط ظننتني لا أُقهَر، ماذا سيكون ظنها بي الآن بعد أن حدث ما حدث، وما ظنها بي حين تنظر إليّ فتراني غارقًا في قلة حيلتي هكذا؟ إنَّ نصرًا أظفر به أمام هذا الطير الماكر من شأنه أن يخلق لي صورة القوي الجبار في مخيلة هؤلاء، وهزيمة واحدة أخرى من شأنها أن تهدم كل حبال الثقة بيني وبينهم، وستجعلهم يُسائلون أنفسهم عن أسباب اتباعهم لي منذ البداية.

أسبوع كامل استغرقه الجناح الأيمن للوغد الأبيض في تعافيه، استطاع إعماله للطيران مرة أخرى إلا أنه ما زال بعد يؤلمه، أسبوع آخر كان ليعفيه من آلامه، هذا ما لم أسمح به خشية التعرض لهجوم، وتابعت طيراني إلى مملكة الطيور الجارحة، إلى منطقة سيادة الطير المتنازع عليها وبشدة المسماة ب "المحروسة" إلى بداية جديدة، وإلى المستقبل.

وضعت سربنا على توجيهات الوغد الأبيض ومحاكاته للطريق إلى موطنه القديم، مستثار أنا منذ يوم جاءني بخبر ذلك المكان، ولا يكف رأسي عن التفكير فيه منذ أن قدم عرضه إليّ، وافقته عليه، طلبت منه التفاصيل، أعطاني إياها، فطلبت مزيدًا من التفاصيل، عرفت منه عن ذلك المكان كل ما قد يعرفه المرء عن مكان يعيش فيه، يهيمن عليه، ويحكمه، وقتها انفردت به وقلت له: لن نذهب لنبحث عن النسور أو بيضها.

نظر إليّ نظرة بينت ما بداخله من شرود وتأمل وسأل: ما العمل إذًا؟ وضعت عيني في عينيه رغبة مني في إرغامه على سماع ما سأقول، وهو ما لم يساورني فيه شك، فأجبته: سنصل إلى هناك، ثم نغير على أضعف الجوارح نخضعها، ونضمها إلينا، ثم نجلبها لنغير على أخرى فأخرى، شيئًا فشيئًا ستزداد أعدادنا وسننمو، سنحكم وسنسود، إغارتنا على أقواها تحدث فقط وقتما تكون لنا الغلبة في العدد عليها.

اللمعة في عينيه بعد سماعه لمقالي كانت هي رده، رحلت بعدها، يجب أن يعتاد ذلك مني وينقله إلى زملائه فالخضوع مُعدٍ بين أفراد السرب الواحد، قيادتي لهم أمر واقع عليهم ما لم تنزل عليهم ويلات بسبب تلك القيادة، إن أنا أحسنت تلك فهم خاضِعون إليّ متى ما أردت منهم الخضوع... مسافة الأسبوع والنصف المتبقية على الوصول قطعناها وبسبب إصابته في أربعة أسابيع، وصلنا صباحًا

إلى جبل مطل على بلدة ريفية يغلب عليها عند رؤيتها من أعلاها المساحات المزروعة خضراء اللون المنتشرة فيها وبكثرة أشجار النخيل، أشجار النخيل المكرنفة المشوكة القاسية، لم نكد نحط في البلدة حتى قال الوغد الأبيض: تلك هي "المحروسة".

سكن البقية أعلى الجبل، وصحبت الوغد الأبيض طوال اليوم طائرًا في البلدة لرؤيتها، تحليلها، ودراستها... منتشر في الأحواض الصغيرة والمتوسطة نبات الخس الأخضر بورقه الطويل المزهر، والثوم والبصل يداعبان أنفينا وقت الطيران، والأكثر انتشارًا بينهم كانت شتلات القمح المزروعة للتو والتي ما زالت على خضارها وما زالت لم يمسسها الاصفرار بعد... مهمة أولى وكلتهم بها كان مقرها شجرتي برتقال متفرعتين ومتلاصقتين لا تبعد مسافتهما، قدتهم إلى حيث تقبعان وقلت لهم خذوا مني الآتي: الشجرتين يعجا بطيور أبوالقردان، العشرات منها إن صحت تقديراتي، سنهجم عليهم، نُخضِعَهُم، ونطالبهم بحقنا في السيادة. شيهانة أول فاتحٍ للمنقار بينهم، سألت: لكنها طيور أبوالقردان مانفعنا بها؟

أجبتها: هي فقط البداية، هي البداية.

وفي صف واحد مصطف؛ كي لا نثير زُعر طيور أبو القردان، صف واحد من ثمانيةِ صقورٍ فقط أخذت أنا مقدمته، تلاصقنا جميعًا في خط سيرنا واتبعنا نفس الاتجاه بحرفية ونظام، صف واحد من يرى

مقدمته فقط رأي العين سيظنه طيرًا واحدًا يطير في السماء، بقوة طائر غازي وضعت مخالبي أمامي، وبضراوة مخترقًا الغلاف الخارجي من أوراق شجرتي البرتقال، طائر أبو قردان أول شارد الذهن يظهر أمامي، وضعت مخلبًا على عُنِقه فسقط مذبوحًا يسيل دمهُ على جذور شجر البرتقال، وطائر ثانٍ تهوي مخالبي على رأسه فتدميها وتطرحه أرضًا، ثم ثالث، ثم رابع، وها هو خامس يظهر أمامي -وقد وصلت أخيرًا إلى قلب الشجرة- نزلت عليه بمنقاري فاخترق جسده وطاح به مسافة عني قبل أن ينزل على الأرضِ قتيلًا، خرجت بقية الصقور من خلفي وأطلقت العنان لضراوتها وشراستها في قلب شجر البرتقال، وخرجت الصرخات منها إلى كل اتجاه، هربت كل الطيور، وأسرنا منها خمسة فقط، أثناء محاولتنا السيطرة عليها وقعنا على كنز مخفي، عش دائري يقبع أعلى الشجرتين، وفي نقطة التقائهما ووسط زحمة من الفروع عش من الليف والقش معبأ ببيض أبو القردان المسنود على فرشٍ من التبن الغزير، فقس من بينهم خمسة بيضات، وخرجت الأفراخ منها تصرخ بحثًا عن احتواء.

*****

مرت الأيام خلفها أيام على وقعتنا في شجرتي البرتقال، حررنا الخمسة أسرى ورضوا مننا رغبتنا لهم في أن يكونوا جندًا لنا، فقست البيضة خلف البيضة، كبرت الأفراخ ونمَا لها الريش قبل الأوان لعنايتنا بها وتوفيرنا لها الطعام، علمناها طرق عيش الصقور، طيران، وصيدًا، وجلدًا، ومبادئ، فتفجرت في الوادي طاقتها واكتسبت ثقتها في نفسها، ولم تعد تعرف عن نفسها شيئًا غير كونها صقورًا،

وانتشرت في الأرجاء سيرتها، سيرة طيور أبوالقردان آكلة الدود تعيش عيش الصقور وتلقى نفس معاملتها.

أسابيع خلفها أسابيع ألهمت الأفراخ طيور أبو القردان الأخرى، فأخذت تتزاحم أفواجًا على شجرتي البرتقال اللتين نالا شرف استقرارنا بهما، واتخاذهما مقرًا مؤقتًا... أسابيع خلفها الأسابيع لا تتوقف فيها أفواج آكلة الدود بيضاء اللون، ليست فقط تلك التي هربت يوم الغارة، ولكن كل قاطني المملكة من طيور أبوالقردان، من كل حدبٍ وصوب، سرب يلي سربًا، فوج يلي فوجًا يحنون رؤوسهم أمامنا ويقسمون بالولاء جندًا وخدمًا، كانت الأمور تسير بسرعة أكبر من تخطيطنا لها، جعلتهم جنودًا للمملكة، ونصبت نفسي ملكًا عليها، المُلك الضائع للنسور عاد مرة أخرى، ولكن تلك المرة هو في أيدي الصقور.

الفصل الثاني عشر

أحمر الرأس

لن تعلم حجم المعاناة التي قد تنزل عليك بسبب عيب في مظهرك إلا إذا كان لديك عيب في مظهرك، أن يتم نبذك ونفيك، كما الحشرة، كطير مُعاق ليس له سبيل إلى النجاة، بالنسبة لي كان قدرًا لي أن أمر بكل هذا، أن يتم نبذي، وأتعرض لِسَوءتي الفهم والتقدير.

ولدت فرخًا لصقري وكري وشاهين، أضفيا بنسبيهما عليّ مزيجًا من الظرف والوداعة، فأتيت صغير الجسد، رمادي اللون "ذا رأسٍ أحمر" أي وبصريح العبارة، لم أكن ظاهريًا صقرًا، لقد كنت أقرب شبهًا إلى ببغاء؛ وذلك هو السبب الذي لأجله نُبِذت واضُهِدت، وهِمتُ وحيدًا في البرية، ليس لي أحد.

تعلمت أصول الصيد وحدي، وكذلك الطيران، لم يكن لي أصدقاء أو عائلة، ولم يكن لي حتى زملاء صيد، بدأت أول ما بدأت بقنص الحشرات، لتلك المخلوقات النتنة صوت قرمشة حينما تُمضَغ أشبه بطقطقة الأخشابِ على النيران، وأشبه بصوت تكسر العظام وانخلاع الأسنان، وتقطم المناقير، كنت أمضغها لحظة أدخلها فمي ولا أعطيها مهلةً خشية التعرض للسع، ليس بغريبٍ عليّ تذكري للألم وشعوري بالوحدة وقت ما أراها الآن، ولم أتوقف عن أكل الحشرات إلا لأني وجدت في غيرها لذة من ضفادع، وسحالي، وعصافير، وجرذان، أذكرها بأنها أول لحظات أكتشف فيها اللحم،

كظمآن رواه الماء العذب كنت أنا، نمَا جسدي واشتد عوده، قويت مخالبي واشتدت رغم صغر أكفافي، ولما وجدت طريقًا إلى العيش، وبدا لي حقًا أنني أنجو، تعرضت للقنص، وسقطت أسيرًا بين أياد بشرية، أسكنوني في قفص، وأودعوني إلى جانب العديد من الطيور الأخرى في صناديق من الفولاذ، وطاروا بنا إلى الشمال الشرقي... مؤكد تعلمت أن آتي بصيدي وأن أنجو، لكني لم أتعلم في حياتي كيفية الحصول على الأصدقاء، لم يقل لي أحد وببساطة أنه وبمجرد أن نبدأ الحديث معهم يكونوا لنا أصدقاء، لم يخفَ على الطيور الأخرى خوفي واضطرابي، كان من بينهم ببغاء، عجبتني ألوانه وأحببت ريشه فأخذت أحدق به دون دراية مني، لقد كان بحق جميل، وقتها تضايق مني وصرخ في: أيها المتوحش... لا يمكنك أكلي، أنا طائر، ولست لحمًا نيئًا، طائر طائر. جنان تلك الببغاوات لايصدق، أفقت من غفوتي في جمال ألوانه على صخبه، ونواحه، طلبت منه أن يهدأ، ووضحت له: حقيقةً أنا فقط... منبهر بجمال هيئتك.

- أوه فعلًا؟ هذا مايفعله البشر عادة، أما أنتم... "قالها وقد ضاقت ملامحه" أنتم لا تتأملوننا إلا لتأكلونا، هل يصادف أن تكون صقرًا أصلًا ؟

- نعم نعم، أنا صقر.

- صحيح لكنك مختلف، هل تكاثرت أمك مع ببغاء؟ لا أدري إن كان ذلك ممكنًا! لكن لا عيب عليها، فنحن أجمل، وأكثر وسامة...مانوعها؟ قل لي، قل لي، هل هي معك هنا؟

لم أكن أدري بماذا أُجيب، لكني سايرته، وتحدثت معه طوال الرحلة حدثته عني، وحدثني عنه، غريب أن يستطيع الببغاء الحديث كما البشر، أخبرني أنه لهذا تم أسره، ولهذا هم محبوبون، ليست لنا نحن الصقور تلك الميزة، ولهذا نُبذت مرة أخرى، وتم طردي بعدما أدرك حثالة البشر عدم حاجتهم إلى طائر أخرس مثلي... من يومها وأنا لا أتوقف عن كسب المزيد من الأصدقاء، أصدقاء توسطوا لي لدى سرب الشمال إلى أن قبلوني أخيرًا بينهم، حتى وإن كنت في ظاهري أشبه إلى ببغاء، ولكن ها أنا أقف حيث يجب عليّ أن أقف، صقر وسط الصقور.

*****

توالت علينا الأحداث منذ ولينا أنفسنا حكم "المحروسة" وتزايدت الوقائع حتى حرمنا أنفسنا النوم؛ لكي نلاحق عليها، أخضعنا طيور أبو القردان، وقد أثبتت أنها تميل إلى الخضوع وتستلطفه كما تستلطف الكلاب أطواقًا يضعها سيدها على رقابها، تزايدت لدينا أعدادها، فأصبحت جيوشًا تموج أفواجها في الوادي، رعيناها، نظمناها، ومنحناها التدريب، ولقناها دروس الطيران والصيد الشرس، وبعد خيبتها الأولى في مواجهتنا وقت أن قدمنا لغزوها كان

لزامًا علينا إضافة درس جديد "الصمود في وجه الغزاة، والدفاعُ عن الأعشاش".

وُلي "الوغد الأبيض" قيادة سرب الهجوم؛ وهو سرب ضرب الأعادي في مناطق سيطرتهم، وهذا يُفسر اهتمامه البالغ مؤخرًا بكلٍ من البوم والغربان وأماكن سيطرتهم. كما وُليت "شيهانة" سرب الدفاع؛ وهو سرب الدفاعِ عن الأعشاش ضد المعتدين والمخربين، هو أيضًا سرب الاهتمام بالأعشاش، مراقبة البيض، وتأهيل الأفراخِ حتى نمو الريش لديهم، ثم يُرسلون إلى معسكرات تدريب السرب الثالث، وذلك ما وُليت أنا قيادته... فإلى جانب تدريب الأفراخ وتقويمها، لي كذلك وظيفة الجاسوسية وجمع المعلومات، ونتيجة جهودٍ بذلتها باتت لي الآن عيونٌ في كامل المملكة، إذ يلجأ ملكنا صجر -وهو صديقي بالمناسبة- إليّ وقتما يريد الاطمئنان على مملكته فأطير إليه بصفٍ من الأخبار، طيور كنت قد وزعتها، أسندها إليه حينما تأتي بخطير الأخبار، فيسردونها عليه في حضرته، كذلك أرسل مثلهم يوميًاإلى قائدي السربين الآخريْن "الشيهانة" و"الوغد الأبيض" ليُعلمانهما بما يحتاجانه من جاهزيات العدو وتحركاته، وما تظهره تلك التحركات من نياتٍ مبيتة لأعدائنا، فإما هي نيات بالدفاع، أو هي نيات بالهجوم.

كانت أول مهمة يسندها "صجر" إليّ وفي حضرة شيهانة، والوغد الأبيض قال: ابحث لي عن الخطاف.

آخر مكان رأينا هذا الصقر فيه يوم كنا على قمة جبل في طريقنا إلى المحروسة، ومن ثم إلى الصحراء أرسلت الدوريات، خلفها الدوريات، في أيام كنت أقود بعضها بنفسي، ومع ذلك لم يكن للمكير أثر، حتى جاءني الخبر، سقط عليّ أبو قردان من السماء، وسيل من الكلمات على منقاره: سيدي أحمر الرأس قائد السرب الثالث "ولا يبدأ أحدهم حديثه معي إلا بهذا" رصدت أعيننا شرق المحروسة اشتباك سرب غربان مع صقر، ولا أظنك سيدي تود تفويته.
أجبته بلهفة مني: رصدتم ماذا؟ صقرا! أي صقر هو ذلك؟ الحر الأبيض أم سيدة الصقور شيهانة؟

- ليس أيًا منهما سيدي، هذا صقر لم نره معكم، ولا نعرفه. مؤكد أن هذا الصقر هو "الخطاف" ولا أحد غيره، المشكلة الوحيدة هي أن وسط ووسط شرق المحروسة هي أماكن سيطرة الغربان، لذلك وبأمر من ملكنا "صجر" توجهت إلى حيث رأته أعيننا بكامل عدد السرب الثالث، يصحبنا شبه كامل عدد سرب الهجوم، وعلى رأسه قائده "الوغد الأبيض" وصلنا إلى حيث رأته أعيننا فكان قد همّ بالهرب، ولم نتمكن حتى من رؤيته، وعلى الأرض هياكل لأربعة غربان مطروحة يسيل دمها، ثلاثة أموات، وواحد فقط جريح على قيد الحياة، أسرناه وعدنا... زاحفًا أمام "صجر" ومستجديًا لحياته راح الغراب ينوح قائلاً: كنا خارجين للصيد ورأيناه أمامنا، ولقد

تهاوينا أمام قوة سيادته وقام بتمزيقنا جميعًا، أنتم –سيدي- الصقور أقوى الكائنات، ونقر لكم بالقيادة، وبالملك.

سأله "صجر": ذلك الصقر... صفه لي.

- نحن لم نرَ الكثير حقًا، ليس سوى المخالب التي حطمت عظامنا، والمنقار الذي انغرس في لحومنا، لكننا لم نرَ شيئًا.

نظر صجر إلى الوغد الأبيض وقال: اقتله.

- لا سيدي أرجوك، حسنا حسنًا.. لقد كان ضخمًا، وقويًا بالطبع، ولديه أعين حمراء، قد هَّم بالهرب لما رآكم.

نظر صجر إلينا وقال: نعم هو الخطاف، لكن لماذا لم يهاجمنا؟ ولماذا قد يذهب إلى شرق المحروسة على الرغم من أنه لا يريد سوانا، ونحن لا نسكن إلا غربها، هل يتجسس على الغربان؟

أجبته: صحيح، هذا ماكان يفعله لولا أن سرب الغربان هذا وقع في طريقه ما كان ليثير أي ضجة، ولكن السؤال: لماذا يتجسس على الغربان؟

أجاب الوغد الأبيض: اقترب الشتاء...

سأله صجر: وماذا في ذلك؟

قال: إنه موسم الهجرة، وموقعنا مثالي، استوائي دافئ، تنتشر الأشجار والنباتات في كافة ربوعه، كما أنه لا يخلو من الفرائس "نظر الوغد الأبيض باستهانة إلى الغراب" ومع وجود منافسين أقل شأنًا

تُصبح هدفًا سهلًا لسيطرة الصقور، والأهم من ذلك، مكاننا أقرب من غيره، سيقطعون فقط نصف المسافة التي يقطعونها في هجرتهم السنوية.

قال صجر: الوغد... وعدهم بخبرنا، ولكنه عاد لهم بخبر هذا كله، وسيعود لنا بكامل عدد بسرب الشَمال... "نظر إلي الوغد الأبيض" هذا الغراب يعرف الكثير، قلت اقتلله.

الغراب مستجدياً: مهلًا ملكي... لدي خطة، لدي خطة، أنت تقول أن الصقور الأخرى قادمة لقتالكم، لدي خطة ستتخلص بها منهم ومن البوم كذلك، الاثنان في يوم واحد.

صقر بنفاذ صبر: قل ما لديك، تحدث.

رد الغراب عليه وقد بدا كما لو أنه استجمع شتات أمره: طريقة بسيطة، إحدى خدع الغربان في الحرب، حينما يأتيكم سرب الشمال، تقفون أمامهم بسرب آخر، لا تقاتلونهم، ولكن تهربون إلى أعشاش البوم وكأنها أعشاشكم أنتم، ثم يلتقي الجمعان فهيلكان معًا، تضرب هذا بذاك، وتأمن أنت.

نظر صجر إلى الوغد الأبيض: هل قلت لك أن تقتله؟

الوغد الأبيض: نعم، هذا بالتأكيد ما كنت تقوله.

صجر: ياويلي، شُلَّ منقاري لحظة أن قلتها، لا بالطبع... لا تقتله، أَبْقِ عليه، سوف أحتاجه.

الفصل الثالث عشر

صـــجـــر

تطير الصقور في سماء المحروسة حاكمة قبضتها عليها بما لها على بقية الطيور من سيادة، فتلك سيدة الطيور "شيهانة" في قيادة سرب الدفاع يتبعها فرخها "ثاني". وذلك سرب الهجوم على رأسه "الحر الأبيض" إلى جانبه الفرخ "ثالث". وشريكا القيادة لسربنا الثالث "أحمر الرأس" إلى جانبه الفرخ "تابع". لهؤلاء القيادة على كامل جيوش المملكة، ولي أنا "ملكهم" قيادتهم إلى جانبي أكثرهم محبةً في قلبي الفرخ "وافي".

تلك الأفراخ الأربعة هي أغلى ما أملك، أي نعم كبروا وأصبحوا صقورًا، إلا أنهم بالنسبة لي سيكونون دومًا الأفراخ الأربعة، ولأجل هؤلاء الأربعة سأقف لقتال العالم كله، وليس فقط سرب الشمال.

حررت غرابي الأسير وجعلته وزيرًا لي، ليس لمعزةٍ أكنها له في قلبي، ولكن لمنفعة ستأتيني من خلفه، لم يُسَر"الحر الأبيض" بقراري، وأعلن على الملأ رفضه له فنهرته، أنذرني "أحمر الرأس" أن عيونه المنتشرة في أعالي الصحراء أنبأته بقدوم سرب الشمال بكامل جيوشه، لا تفصله عنا إلا مسافة ثلاثة أيامٍ فقط، فأعطيته أمرًا: اجمع عيونك من كل المملكة حتى تلك التي في الصحراء، أَحْصِها، نظم صفوفها، وجهزها للدفاع عن الأعشاش.

أثارت كلماتي حيرته واستغرابه إلا أنه امتثل لها وبدأ في تنفيذها، أعقبت شيهانة بعد سماعها لمقالي: لكني اعتقدتك أعطيتني أنا مهمة تحصين الأعشاش؟ أكنت تهزأ بي حينها، أم أنك لا تثق بي الآن؟

أجبتها: لا هذا ولا ذاك، ولكني أبقيكِ الآن لمهمة أخرى.

ضرب الشك قلوب قادة الأسراب بسبب قراراتي المفاجِئة فجمعتهم حولي، وطلبت منهم الإنصات... لا أدري كيف ستتقبل عقولهم شيئًا كهذا، لكنهم سيثنون عليه حين انتهائه، بالطبع لا تفهم الصقور معنى قتالٍ لا تقاتل فيه، وبما أنها أساليب عدونا في مواجهتنا، حق عليّ أن ألجأ إليها، وإن كنت اهتديت إلى قراري هذا وحدي إلا أنه وحين الانتهاء منه لن يتوقف ثناؤهم عليه إلى يوم مماتهم، وإن أنا أحسنت تدبيره، فإن شكوكًا تسكن قلوبهم ستفر منها، وستُستَبدَل بالثقة المطلقة، وتبعية فوق تبعية، وبالعبادة... لفتت جاهزياتنا للمعركة انتباه الغربان، فتجهزوا بدورهم للدفاع عن أنفسهم وقد حسبونا –في أي وقت- نهاجمهم.

مر نهار اليوم، فضربت الظلمة أطراف المحروسة وأعتمتها، فسكنت الحياة فيها وأُبطِلَت، ومن منطقة سيطرتنا غربًا ارتفعت الطيور محلقة، بدايةً بي ضربت بأجنحتي وارتفعت في الهواء، لحق بي "الوغد الأبيض" فاستوى على يساري وأخذ بالاصطفاف خلفه كامل سرب الهجوم، في ذيلنا سيدة الطيور "شيهانة" ومعها كامل عدد سرب الدفاع، وجميع أفراخ المملكة الكبير منها والصغير،

ومصطفة خلفها طيور أبوالقردان ممسكة بالبيض استعدادًا لنقله... بخفة وهدوء، ومن مقرنا غرب المحروسة أدرنا مناقيرنا إلى جنوبها، ابتعدت صفوفنا عن شجرتي البرتقال العملاقتين، وخرجت خلفها صفوفٌ أخرى تبعتها، تحركت الصفوف خلفها، صفوف حاجبة ضوء القمر عن الأرض.. وصلت بالجمع إلى وجهتنا القابعة على أطراف الأطراف الجنوبية؛ وهي خرائب مزدحمة بأشجار النخيل، أرضها مقرٌ للخبائث والزواحف، لا تطأها قدم البشر خشية الموت، ولا يدخلها غراب مهما عظم لديه السبب على الدخول... يدعوها البشر بخرائب الجن، وتدعوها الغربان بطريق الموت، ونعرفها نحن مقرًا لطيور البوم.

*****

خرجت البوم إلينا بأعداد كبيرة، صفوف خلفها صفوف تعكس علمها بالجندية وأصول الحرب، كان "الحر الأبيض" قد أخبرني مرة أن البوم هم أكثر المتضررين بسقوط مُلك النسور، وما زالوا محافظين على صفهم ونظامهم، عكس الغربان التي لا تعرف وحدة ولا صفًا، ولا نظامًا، ولا تعرف معني عهد قطعته، الغربان ناكثة للعهود "هكذا يقولها لي تخرج كلمة غربان من فهمه في عجل وكأنه يبصقها" اصطفينا وأخذنا نتقدم صفًا يليه صف، وتقدمت البوم إلينا بنفس الطريقة، وفي المنتصف التقى الجمعان.

منذ يومٍ مضى أتى رسول للبوم، حط أمامي بوجهه العريض، وانحنى أمامي ناقلًا إليّ آمال بني جلدته في النجاة: سيدي ملك الصقور.

- تحدث.

مال الغراب على رأسي، وهمّ ليقول شيئًا، ولكني نهيته فتراجع.

رسول البوم: قد علم قومي بفعل سيادتك منذ قدمت إلى المحروسة، وقد طلبوا مني أن أنقل إلى سيادتكم رغبتنا المستميتة في النجاة، ولذلك قرروا بالإجماع القسم بالولاء لك، وقبول حُكمك، وحكم أفراخك من بعدك.

- طيور حكيمة، طيور حكيمة... أؤكد لك أن قراركم هذا في صالحكم.

رسول البوم: ولكن لنا شروط.

حينها لم يستطع الغراب كتم ما في نفسه بعد، فصرخ به في حضرة رسول البوم: سيدي، يجب أن أنقل إليك قلقي واضطرابي عليك من تلك الطيور المخادعة.

نظرت إليه وقطعت عليه كلامه: حقًا، البوم طيور مخادعة؟

الغراب: نعم سيدي هي مخادعة، تعلم... لدينا ذلك المثل، الذي يقول:"إذا عزمت البوم على موتك، بدأت بملاطفتك".

نظرت إليّ رسول البوم، فكان ما زال حانيًا رقبته: اعتدل رجاء، وقل ما عندك، ماهي شروطكم تلك؟

رسول البوم: كما تعلم سيدي، تربطنا بالغربان عداوة تاريخية، ومع اتخاذك غرابًا كوزير لك يثير ذلك خوفنا منك وعليك... أما خوفنا منك، فهو خوفنا من ألا تكون على قدرٍ من الحكمة كما نسمع عنك،

فتنفذ كل ما يطلبه منك غرابك، وحينها سيوسوس لك حتمًا لقتالنا؛إذ إننا ألد أعدائهم...

همّ الغراب قائلًا: سيدي جني هذا الطير على نفسه إذ تجرأ عليك ليدعوك بعديم الحكمة، لست أقول ما أقول إلا لنصحك سيدي، وخلاصة قولي ونصحي لك هو أن تقطع له رأسه وتعيدها إلى راسليه.

حدجت الغراب بنظرة غضب، فارتعشت أطرافه ونحَّا نفسه جانبًا، نظرت إلى رسول البوم سألته: أما هذا قد علمنا قصدك فيه، ماذا عن خوفكم عليّ؟

رسول البوم: تعلم سيدي، لست تقيم أول مملكة طيور في المحروسة، ولست أول ملك عليها، كنا أمة واحدة من قبل، وكان لنا ملك علينا، وكان ليعيش إلى تلك اللحظة لولا ثقته في الغربان، فقد قتلوه، وقتلوا كل أسراب الصقور حينها... كنا لنحظى بنفس المصير لو لم نكن نحن البوم على علم بطبيعة تلك الغربان، ولو أننا لم نغادر في الوقت المناسب.

التفت إلى الجند حولي "اقتلوه" أحاطوا بالبوم الذي استسلم لهم، أدركتهم قبل أن يقطعوا له رأسه "بل الغراب أيها الأغبياء، اقتلوا الغراب" سمعوها مني فتجمدوا في أماكنهم من وقع الصدمة، وسمعها الغراب، فعلم أني أعنيها، رفرف جناحيْه، وقفز مستميتًا عليّ محاولًا إصابتي في رأسي، رفرت أجنحتي أنا الآخر.. قفزت عليه،

ووضعت مخلبًا على عنقه أرداه عند مخلبي طائر البوم قتيلًا مذبوحًا... نظر إليّ البوم، ونظرت إليه: أي غُرابٍ هو هذا؟

رسول البوم: وزيرك يا مولاي.

- مولاك! طيور حكيمة بالفعل، قد أوفيت لك شرطك، من الآن نويت قتل جميع الغربان، وأنا كفيل بما نويت... خذ رأس الغراب، وعد بها إلى قومك؛ هي دليل على صدقي إليكم، فالآن بِتُّمْ رعاياي وتدينون لي بالولاء.

*****

أخذنا أعشاش البوم مقرًا لناً، فضايفتنا وجاهدت وسعها في خدمتنا لتظهر لنا التبعية والولاء، وقد كنت ملكًا على مقر البوم أكثر من كوني ملكًا في مقري على شجرتي البرتقال، لم يكن يحمي المقر القديم سوى السرب الثالث، وإن فهم قائده أحمر الرأس ما قلته له حقًا، فإنه لن يضطر للقيام بأي ردات فعلٍ دفاعية...

يومان مرا علينا في ضيافة البوم، وبينما أنا منهمك في مراقبة البوم سقط عليّ طائر أبو قردان من السماء: سيدي ملكًا للمحروسة "صجر" استولى سرب الشمال على مقرنا في شجرتي البرتقال، وقد همَّ سيدي قائد السرب الثالث "أحمر الرأس" بالهروب، وقد بعث بي لأبلغك، وأنا أول المُنحلين عن الصف.

سقط آكل الدود الأبيض على من السماء بتقريره، فسعدت به، وأوقفته إلى يساري...

خطتي التي طورتها في حديثي مع "أحمر الرأس" تقتضي هروبه من المقر لحظة وصول سرب الشمال إليه، ثم يتوجه إلى وسط المحروسة إن تبعه سرب الشمال ليقوده إلى أعشاش طيور الغربان، سقط طائر أبوقردان آخر من السماء: سيدي ملكًا للمحروسة "صجر"، استقرت نصف قوات سرب الشمال في مقرنا بقيادة الحكيم، وخرج نصفهم الآخر مطاردًا السرب الثالث لمملكة المحروسة يتقدمهم قائدهم الصقر الخطاف، قد بعث بي قائدي لأبلغك، وأنا ثاني المنحلين عن النصف.

تلقيت الطائر بخبره وأسندته إلى يساري بجانب رفيقه، تعتمد طريقة الحكم لدي سرب الشمال أن يختاروا منهم صقرًا عجوزًا يكون أكبرهم عمرًا ليقيم الأمر فيهم ويحكمهم، يدعونه بالحكيم، وذلك هو الوغد الذي استقر بنصف قواته في شجرتي البرتقال، اعتمدت خطتنا ومن أساسياتها، أن يتخلى أحمر الرأس عن قواته واحدًا فالآخر؛ كي لايثير ريب أسراب الشمال، تأتيني القوات المنحلة عنه بخبره مع أسراب الشمال، وحتى إذا وصل إلى مقر الغربان لايتبقى معه إلا قليل منهم، فيسهل هروبهم وتنصلهم من معركة تكون بين غربان المحروسة وصقور الشمال، ولهذا؛ لم تنقطع سقطات آكلة الدود البيضاء علينا من السماء حتى انتهاء المعركة.

- سيدي ملكًا للمحروسة "صجر" قد نجح فخنا الذي أعددناه، إذ انقادت صقور الشمال إلى وسط المحروسة، لم يبعثني سيدي "أحمر الرأس" بخبري؛ لأننا فقدناه وسط المعركة، ولكن بعثني

رفيقه الصقر "تابع" وقد أتيت لإخبارك، وأنا آخر المنحلين عن الصف.

صدق آكل الدود الأبيض في خبر اختفاء "أحمر الرأس" إلا أنه لم يكن حقًا آخر المنحلين عن السرب الثالث، أمرته بالاصطفاف إلى جانب باقي زُملاء سربه بعددهم شبه الكامل، وبينما استشعرت وشعروا بحاجتهم إلى قائد، سقط آخرهم من السماء، كان الفرخ "تابع": سيدي "صجر" اشتبك كل من صقور الشمال وغربان المحروسة، عَلِم الخطاف بالشرك الذي أوقعناه فيه، فاندفع مستميتًا إلى أحمر الرأس وقتله، أفنيت جميع الصقور المهاجمة من سرب الشمال،كما أفنيت معظم صفوف الغربان، هربت من المعركة وجئتك بخبرها.

- والخطاف قد هرب كذلك، صحيح؟

تابع: صحيح سيدي... قد هرب.

*****

سقط الصقر "تابع" علينا من السماء، بلغ خبره، ونبهنا إلى عظيم صنع فقيدنا قائد السرب الثالث "أحمر الرأس" بسبب نجاة كامل سربه وموته، ونبهنا إلى خسة عدونا وقائد جيوش عدونا الصقر "خطاف" لنفوق كامل قواته، والتي تُشكل نصف عدد جيوش الغازي المدعو بسرب الشمال، ومن ثم هروبه من ميدان المعركة تاركًا خلفه هياكل صقورٍ تبعته ووثقت به، وظنته قائدًا يستحق اتباعهم له، بلغ تابع خبره ووقف على مرأى من جميع القادة والجند

يقول: أهنئك ملكي على فناء عدوك، ماتت الغربان. سمعتها البوم فانتفضت صفوفها نفضة طيرٍ واحد، وأخذت تردد مقالتها: صجر، صجر، صجر.

لحظة عزي ومجدي، لحظة ظفرت بها الصقور بحكم المحروسة، ولحظة أدركت فيها البوم أحقيتي في القيادة والملك؛إ ذ أخذت لها ثأرها من الغربان، وعلى مرأى منهم جميعًا كرمت فقيدنا أحمر الرأس بأن أعطيت تلميذه ورفيقه الفرخ "تابع" قيادة السرب الثالث من بعده، فأخذت طيور أبو القردان تردد مقالة البوم: صجر، صجر، صجر.

حلقت إلى السماء متفاديًا أشجار النخيل، وارتفعت في الهواء يتبعني قواد جيوش المملكة، ومن خلفهم صفوف الجند مرددة مقالتها: صجر، صجر، صجر.

ضبطت منقاري من مقر البوم جنوب المحروسة إلى شرقها حيث تقطن الغربان وأعشاشها، في منتصف نهار يومنا اندفعت الصفوف خلفها الصفوف، ولم يكن في سماء المحروسة كلها غيرنا، ولم يكن على أرضها مخلوق من إنس أو حيوان إلا ويتطلع إلينا، وصلنا إلى أطراف البلدة شرقًا، فانتهت حدودها عند خط مرور نهر النيل، أدرنا صفوفنا إلى وسطها وتوجهنا صفًا واحدًا في طريقنا ناحية الغرب، خرجت إلينا بقايا طيور الغربان من أعشاشها أعلى أشجار النخيل، هاجمنا بعضها لحظة ما أدركوا وجود البوم في صفوفنا، فأسقطناهم ودمرنا صفوفهم وقواتهم حتى امتلأت بها الأرض، وهرب آخرون

منهم لما أدركوا فداحة مواجهتهم لنا، وصلت إلى شجرتي البرتقال المقر الأول لنا وللمملكة، والصفوف خلفي مرددة: صجر، صجر، صجر. خرج إلي حكيم سرب الشمال يطلب مني الأمان له ولطيوره.

- سنخرج إلى الجنوب، ونكمل طريق هجرتنا السنوية، لا نريد منكم شيئًا ولا تريدون منا شيئًا... دعونا وشأننا.

لم يكن يدري العجوز ما يقول... أتذكر يوم خرجنا منهم ناشدين النجاة، وكل ما أردناه حينها ألا يتعرضون لنا، نظرت إلى سيدة الصقور "شيهانة" على يساري، فأيدت نظراتها إليه رأيي، ونظرت إلى"الحر الأبيض"على يميني فخرجت منه نحوي نفس النظرات.

التفت إلى عجوز سرب الشمال وطرت إليه، وضعت مخلبًا على صدره، ولم أرَى منه مقاومة، وقع مخلبي الحاد بسهولة على صدره العجوز، فوكأنني قد وضعته على الهواء، وكأنني أشق به سطح الماء، انغرس المخلب في جسده النحيف وشق له قلبه، اهتز كامل جسده بين ساقَيَّ بعنف، فسكن وسكنت أنفاسه، والطيور مرددة خلفي: صجر،صجر،صجر.

خرجت صقور الشمال من قلب شجرتي البرتقال مرددة نفس المقالة، ومعلنة استسلامها وخضوعها، وطلبها لي بأن أجعلها من جندي وحاشيتي، وأن أسكنها سماء المملكة، مملكة الطيور والإنس، إلى حين التخلص من الإنس فيها.

الفصل الرابع عشر

كلب

عاشت المحروسة، وطيور المحروسة، ودامت سقطاتها علينا من السماء أبدًا... كلب مثلي، ونظرًاإلى الظروف، لا يمكنه أن يأمل في قطعةٍ من اللحم بل لا يسعني حتى التلذذ بالعظام، قد تحصل عليهما القطط نعم، فهي تسكن المنازل ويستلطفها البشر، والأهم من ذلك ليست بها نجاسة، وهذا ما لا أستطيع قوله عن نفسي.

طعامي هو كسرة الخبز التي يلقيها لي سيدي خوفًا عليّ من موتي جوعًا ولا شيء آخر غير ذلك، لا شيء سوى البلح، فلدى سيدي شجرة نخيلٍ قصيرة، أركض نحوها، أقفز عليها، أضرب رأسي في أعلاها فيتساقط البلح منها عليّ، أنا لا أحب البلح، يسبب لي آلامًا في معدتي، وتؤلمني بذوره إن أخرجتها أثناء التبرز، مؤكد لا أحب البلح، ومع ذلك لا أكرهه، فهو يقيني من الجوع، هذا هو حال جميع كلاب المنازل مثلي، قُدِر لنا أن يربطنا أسيادنا في زرائبهم إلى جانب البهائم لحراستها، أما كلاب الشوارع فلها حظ أوفر، فهي تطارد البهائم الضالة، والقطط، والفئران، والطيور،لا يتوه مخلوق في الظلام ليلًا دون راعٍ له إلا ونرى بقايا عظامه في الصباح، من المؤسف أن يضطروا لكل هذا، ولكنها الطريقة الوحيدة للنجاة.

منذ خمسة أيامٍ مضت تساقطت علينا الطيور النافقة من السماء، سببت رُعبًا للبشر، وقالوا عنها أنها عِقاب من الله، لم تتسبب في

خوفي أنا على الأقل، فمن يومها وأنا لا أعرف سوى النوم الهنئ والبطن الممتلئ، لقد أحببت مذاق تلك الطيور رغم انزعاجي من الريش، أحببتها لحظة سقطت عليّ، أحببتها حينما تذوقتها وأعجبني المذاق، وحينما أكلتها ولم تنفذ، أحببتها حينما احتفظت بعظامها أسفل مرقدي، وأحببتها حتى حينما تعفنت وانتشر الدود فيها؛ إذ إني أكلتها سليمة ولا يسعني تركها الآن، ولا يبدو صائبًا لي أن أتخلى عنها وأدعها فريسةً للدود. لقد أكلت وشبعت طوال الأسبوع، وعرفت ماهو اللحم، ومذاق اللحم، لذلك؛ لا يخزيني أن أقول هذا: عاشت المحروسة، وطيور المحروسة، ودامت سقطاتها علينا من السماء أبدًا.

المثير للريبة والغرابة أنها لم تعد تتساقط ميتة بعد، إذ إن لسيدي ابنًا خرج نهار اليوم، وحينما عاد إلى المنزل كان فاقدًا لإحدى عينيه والدماء تغطي وجهه، قال شهود حضروا فقْده لها أن طائرًا سقط عليه من السماء خطف عينه من مكانها وهرب، فك سيدي من بعدها وثاقي، وجعلني أتبعه في كل مكان، حضرت من قبل مواقف مماثلة لتلك، حيث إنه في يوم من الأيام أصاب كلبًا طليقًا مرضُ السعار، وراح يهجم على الناس في الشوارع حتى كادت أن تخلو منها، لقد جعلهم كلب واحد يلزمون بيوتهم طيلة أيام هيجانه ويمنعون أطفالهم من الخروج، نعم عشت أيامًا كهذه، الغريب فقط أن تفعلها الطيور، طيورمصابة بالسعار، وليست كلابًا كالمرات السابقة.

*****

تكررت هجمات الطيور على الناس طوال الأيام الماضية، وتسببت في ضياع الكثير من الأعين، كاد آخرها أن يخطف عينًا لسيدي لولا حسن حظه أني كنت محررًا من القيود ساعتها فقفزت على الطائر وقتلته، غرزت أنيابي فيه، قطعت له جناحه وبامتنان مني أكلته، ففك سيدي وثاقي وأجبرني على اتباعه، تبعته إلى الحقل، تبعته في زياراته إلى أقاربه، وتبعته حتى في رحلات لم أعرف غرضه منها، طريق واحد فقط لم يسعني اتباعه فيه وهو طريقه إلى المسجد...

كنت راقدًاعلى عتبة المنزل حينما شممتُ رائحة العرق تموج إلى الخارج، فعرفت أنها جلبابه يرتديها، وتناولها من على مسمارٍ بالحائط، ثم أدركت خبطة ثقيلة صدرت من الباب الخشبي خلفي، فكانت تلك شومته المودوعة خلفه، أخذها لتعينه على طريقه، ومن هنا لم يكن عسيرًاعليّ أن أتنبأ باختفاء مفاجئ لرائحة النتانة المنبعثة من فروة رأسه، لما رُكِزَت في طاقية صوفية صفراء راح يرتديها، ولُف عليها شاش أبيض كغطاء للرأس، وارتدى حذاءَه الأسود المتحجر، ذلك الحذاء القاسي ملعون من يرتديه أيًا كان - أعرف مدى صلابة هذا الحذاء؛ لأنه ذات يومٍ حشره في مؤخرتي فدميت- ثم خرج من البيت وأغلق بابه خلفه.

خارج البيت عشة عنكبوتية مترامية الأطراف، قوامها أعمدة محفور لها في الأرض، ومرفوعة بالطوب اللبِنِ، يحيط بها سور مبني على نفس الهيئة، وسقفها مغطى بالجريد وأطراف النخيل، عبرها بسلاسة في خمسة عشر خطوة، وقفزتين من أعلى بهائمه الراقدة في منتصفها، رفع مزلاج باب العشة العريض المصنوع من جريد النخل

والمغطى بعد ذلك بالصفيح، نحَّا نفسه خطوتين عن البقعة اللزجة التي أنام فيها، وخطَا خارج العشة بيمناه... مغروس في الأرض وتد حديدي موصولة حلقته بالحبال والسلاسل الموجودة لتكبيلي وقت الحاجة، خطَا خارجًا بيمناه فتعثرت يسراه بالوتد، احتك فم حذائه الحديدي برأس الوتد فأشعل شرارة أضاءت جلبابه، وروّعه منظرها، عويت عليه أحذره من السقوط ولم يحذر، زاد عوائي من روعه فسقط بقوة على وجهه، وصرخ مهلوعًا كمن أصابه السعر.

- تمهل، سيدي... عُفيتَ سيدي.

لا أظنه يفهم شيئًا مما أعوي به، نهض وتناول شومته، وهوي بثقلها وغلظتها على رأسي، فأحسست عينَيَّ تخرجان منها، ولم أستطع الوقوف على قدمَيَّ، رآني ولم يرقّ لي وصرخ بي: أما عدمتك يانجس، أيها الكلب النجس.

وهوي بضربة أخرى على رأسي.

ذهب الضوء من عينَيَّ ، وذهبت مني القدرة على الإحساس، ذهبت روائح الروث المنبعثة من الزريبة، ذهب سيدي وذهبت رائحة عرقه، وذهبت أنا في نومةٍ طويلة كادت أن تهلك بي، استفقت فوجدتني ملقى في الترعة وقد غمرتني مياهها العكرة، ووجدتني أصارع الغرق، جاهدت وسعي للخروج، وساعدني عليه قرص الشمس المضيء على السطح في وسط عتمةٍ وسواد.

خطوت بصعوبة من قلب الترعة إلى برها طلبًا للنجاة، غطت الكدمات جسدي، وأفقدتني القدرة على السير، فتحت فكي لأعوي من شدة الألم، فلم أستطع أن أعوي، وخرجت بدلًا من العواء أصوات صفير ونقنقة، كأنها تخرج من طائر، ارتجفت أطرافي من الخوف...نظرت خلفي ولم أرَ شيئًا، درت حول نفسي، وبحثت عن طيور في الأرض وفي السماء ولم أجدها، فتحت فكي مرة أخرى أردت العواء، ومرة أخرى لم أستطع أن أعوي، وقفت أمامي امرأة عجوز متوشحة بالسواد، قفزت عليها وثقبت لها عينيْها، صرخت وتوالت الصفعات منها بيديها العاريتين على وجهي لتتخلص مني، ولم أخلصها مني، اشتهيت عينيْها كأني لم أشتهِ شيئًا من قبل، سال لعابي عليهما، غرزت أنيابي لأستخرجهما، فلم أستخرجهما، فُقعتا لما غرست فيهما أنيابي ولم أتذوق منهما سوى الدماء، هرع الناس عليّ وأرادوا قتلي، قالب طوب طاح في الهواء وأصابني في فكي، رأس شومة هوت على قدمي، ولوح زجاجي سُدِدِ عليّ فاخترق بطني وأدماها، صرخت فيهم بأعلى صوتي، فكانت أعلى صرخة لطائر وليست بعواء كلب، أصاب الناس الهلع، ورأيت الرعب في أعينهم، ركضت على أحدهم، فابتعد عني وترك لي طريقًا خاليًا للهروب فسلكته، ركضت في الشوارع ويكاد قلبي ينفجر من قوة نبضاته، سمعت كلابًا تعوي، سمعت صراخًا، وسمعت صوت ضرب رصاص، ركضت على بيت سيدي، فمنعني عنه باب الزريبة المغلق، قفزت من أعلى سورها ووجدته في الداخل، هجمت عليه وقضمت

جلبابه، تعثر وسقط على الأرض فنهشت له وجهه، صرخ واستنجد بأهل بيته فنجدوه.

تكاثروا عليّ، وجاءوا جميعًا لضربي، صرخت فيهم فهابوا صوتي، وهابوني معه وتراجعوا، خرج ابنه من المنزل وفي يده سلاح، قفزت عليه وأسقطته منه، تركتهم وركضت إلى السلالم، صعدت الطابق الأول، والثاني، والثالث، وصلت إلى سطح المبنى ولحقوا بيجميعًا مسلحين والغضب على وجوههم، ركضت عليهم وركضوا في اتجاهي، توقفت في منتصف المسافة بيني وبينهم وركضت في الجهة الأخرى مبتعدًا عنهم، فركضوا خلفي ولم يتركوني، وصلت إلى نهاية المبنى، توقفوا هم، لكني أنا لم أتوقف وبدون خوف قفزت.

سقط الفراء ونمَا الريش، ضاعت الأظافر وجاءت المخالب، التحمت الأقدام الأربعة وصارت اثنتين، سقطت الأنياب، تصلب الفم واحتد، فصار منقارًا، أصبحت كلبًا وأمسيت طيرًا، اعتدت السير على أربع، وها أنا الآن محلقٌ بجناحين.

الفصل الخامس عشر

صـــجـــر

صجر، صجر، صجر... ألف طائر مغرد مع ظهور أول ضوءٍ للشمس، وليس الألف تعدادًا للطيور "صجر، صجر، صجر" شعار بات للطيور وللمملكة، تحية يلقيها الطير على الطير إذا لاقاه ساعة تحليقٍ في السماء، وعلامة تميزنا لدى البشر نصرخ عليهم بها إذا ما خطفنا شيئًا من على الأرض أو أصبناه.

صجر هو ملكهم القوي، القادر على فعل الكثير، وإذا كان صجر كل واحدٍ منهم، فكل واحدٍ منهم إذًا قوي، وكل واحدٍ منهم قادر على فعل الكثير...

لم أكن أتوقع أنا ولكوني صقرًا أن بعد حرب يأتي سلام، فسلامي الوحيد كان داخل بيضة أسقطتها أمي، نموت أنا والبيضة لم تنمو فتصدعت لحظة ما قدمتني إلى هذا العالم وسقطت عني قشورها، فمن هنا فقدت أنا سلامي، ومن هنا، لم أتوقع نهاية للحروب.

خلو السماء من الغربان مؤخرًا، وخلوها من صفوف أسراب الشمال المعادية، وخلوها من أي عدو نشن عليه الغارات أصابتنا بشبح الفراغ، وخلقت هالة من الهدوء البارد المزعج، ولم تعهد الصقور السلام، ولم تعهد الصقور الهدوء.

منذ أن تتفتح عينا صقر على هذا العالم، فليس له خيار سوى الحرب، حرب على الفرائس، حرب على الأعشاش، وحرب للنجاة يطلقها أثناء هجرته على أي عقبات في الطريق، وحروب أخرى قد تأتي من أماكن لا تأتينا منها حروب، وهل هناك حقًا أماكن لا تأتي منها الحروب؟ وجب أن تكون تلك هي القاعدة، ليست هناك أماكن لا تأتينا منها الحروب، وليست هناك حروب قد تطالب بكلفة أقل من كلفة الموت.

أكثر جند المملكة عددًا هي طيور أبو القردان، أقل منها البوم، أقل من البوم الصقور، وأقل منهم جميعًا الغربان، ذلك لأن وجودها منعدم، غير ذلك طيور أقل شأنًا منها الزرازير، والعصافير، والحمام، والنقاقير، والخطاطيف، والهدهد، والكثير من الأشياء الأخرى التي لا أجد لها أسماء، جحافل هائلة تموج صفوفها في المحروسة تحت أسرابنا وألويتنا، ولا نحصي لها عددًا، فلكثرتها تلك فاقت قدرتنا على الإحصاء، يدينون جميعًا بالولاء لي، ويدينون لقوادي بالتبعية والاحترام.

مؤخرًا أبدلت اسم "ذو الرأس الأحمر" بعد توليه قيادة أحد الأسراب إلى"قائد السرب الثالث أحمر الرأس" ولم يخاطبه طائر بعدها إلا بسيدي، وذلك كان نصيبه من الاحترام، عساه يكون كافيًا له بعد موته كما أرضاه حيًا وكفاه، وأبدلت اسم "الوغد الأبيض" ولتوليه قيادة أحد الأسراب إلى"الحر الأبيض قائد سرب الهجوم" ولا يناديه طائر إلا بسيدي، وذلك كان نصيبه من الاحترام، كما أبدلت اسم الشاهينية الجامحة شيهانة بعد توليها قيادة أحد الأسراب

إلى"سيدة الطيور شيهانة حاضنة الأفراخ وقائدة سرب الدفاع" لا يناديها أحد إلا بالأم الحاضنة، وذلك كان نصيبها من الاحترام.

- تدعوها بسيدة الصقور، وأنت سيدًا للصقور... ومع ذلك، لم تتكاثرا بعد؟

كان ذلك الوغد الأبيض في حديثه اليوم معي، ولكني لم أجِبْه... غلبتني اليومعلى نفسي رغبتي في الصيد، وعاونها على ذلك بغضي للهدوء، فخرجت رغمًا عن توسلات كامل المملكة لي وآثرت أن آتي صيدي بنفسي، فقد توقعوا مني أن أستلقي على فروع شجرتي البرتقال، وأنتظر أن يأتوني بطعامي، وأنتظره أن يتساقط عليّ من السماء، عادة اكتسبوها من حكم النسور عليهم حسبما سمعت، فخِزي للنسور هذا ومذلة... لا يفهم هؤلاء وللأسف معنى أن أكون صقرًا.

التفتت عيناي إلى أرنب بني اللون يركض وحيدًافي الحقل، بادر الحر الأبيض بالطيران إليه، وأغلق عليه أحد طريقين وحيدين للهروب، كان الأرنب يهمّ راكضًا عبر الطريق الآخر فأغلقته بدوري عليه، أرعبته، أربكته، وضعت مخلبًاعلى رأسه لتثبيتها، وبالآخر حززت له عنقه، قفز الحر الأبيض عليه وضغط بقوة علىأقدام الأرنب لإحكام تثبيته وتجنبًا للركلات، وسط انشغالي بشق فروة الأرنب، قال الحر الأبيض: أتعلم؟ صقور سرب الشمال المنحلة عنه، يتجنبونها فقط لاعتقادهم أنها تخصك، غريب تجنبك لها حتىالآن!

"يعني شيهانة بكلامه" لوهلة توقفت عن الأكل، ولوهلة أجبرني على التفكير، وأجبرني على التصرف.

*****

شيهانة

عن طول قامتها، دقة منقارها، حدة مخالبها، وآية الجمال في هذا كله زرقة ريشها... صفوف الطيور في سماء المحروسة عصية عن الإحصاء، مستحيلة العد، ومع ذلك تبرز شيهانتي من بينها كما تبرز الجوهرة الثمينة في العقد، وتكون أثمن مافيه، رغم حبات اللؤلؤ فيه، ورغم سلسلة لامعة من الذهب. على غفلة منها هجمت عليها، قبضت عليها بمخالبي، طرت بها مسافة عن شجرتي البرتقال، وألقيتها برقةٍ على سنبلات القمح، عادت هائجة واقفًا ريشها، دقيقًا منقارها، حادة مخالبها ومشهرة، حائرة أعينها تبحث عن المعتدي فكنت أنا، رأتني فطاطأت منقارها، وفي هدوءٍ قالت: سيدي صجر...

أجبتها: سيدتي شيهانة...

رددت حائرة: سيدتك؟!

أجبتها: نعم سيدتي، ما الذي يمنعك من أن تكوني سيدتي؟

قالت: أنت ملك علينا، إنما أنا لست بملكة.

قالتها وكأنها تعاتبني، فقلت أنا: سوف أجعلك ملكتي إذًا... كونك لا تصلحين لسرب الدفاع.

حارت أعينها في كل اتجاه، وأخذت توقعهما على كل شيء آخر ما عداي.

فقلت: أنت حتى فشلتِ في المهمة الوحيدة التي أوكلتها إليك.

سألت وقد بدَا عليها الغضب: أي مهمة تلك؟

قلت: مهمة الدفاع عن الأعشاش، والدليل على فشلك هو ماحدث الآن، طرت بك من مكانك أعلى شجرتي البرتقال.

قاطعتني: أخذتني على غفلة، ولو أني...

قاطعتها: بالغفلة هزمنا عدونا.

صمتت فأعدت سؤالي عليها: تودين أن تصبحي الملكة؟

لم تجيبني ولكنها حلقت، دارت في الهواء، وأخذت تستعرض براعتها في الطيران لتثير إعجابي، رأيت ذلك منها، فعلمت أنها ترغب بي مثل رغبتي فيها، حركت أجنحتي، طرت إليها التصقت بها، فهوينا بسقوطٍ مروع لم يبالِ أحدنا به، هوينا وهوينا حتى نزلنا على الأرض، ووارتنا سنبلات القمح الخشنة الصفراء بينها.

*****

أعشاش الصقور هشة تقتلعها الرياح، زائلة لا نسكنها غير موسم واحد، ثم تعتدي عليها الطيور بعد هجرتنا عنها، ومثلما هي واهنة

أعشاشنا كذلك العائلات هي واهنة، لا تصمد في وجه الأعاصير، وخير دليل على ذلك كانت عائلتي، يوم قتلها البشر للتسلية واللهو...

وكل شيء فعلته منذ ذلك الحين هو بغرض إيجاد طرق للرد على البشر، وبغرض التصدي لتعدياتهم علينا، وبينما أملك الآن كل مصادر القوة والمتمثلة في مملكة كاملة للطيور، لم تعد رغبتي في الانتقام ملحةً عليّ كما كان شأنها في الماضي، ولم تعد بذات الأهمية، وصغرت ضرورتها في نفسي، ووقع ذلك في نفسي لما أدركت مدى ذكاء البشر، وعلمت أن لهم بطبيعة الحال الهيمنة الكاملة على ذلك الكوكب، وليس حكيمًا منا أن نناجزهم عليه، إنهم لا يضيقون على الصقور إلا للتسلية فقط، وإذا ما حاربناهم نحن فسنعطيهم سببًا حقيقيًا لحربنا، ووقتها لن يكون مجرد لهو، ووقتها سنفنى....

الآن باتت معي شيهانة، وتغير بوجودها كل شيء، اتفقت أنا وهي على أن نكون عائلة، تكاثرت معها طيلة أيام مضت، وعلى مكان ما في عش ما حجبناه عن الجميع، وضعت بيضها، لها هي فكرة حجبنا البيض عن الطيور، قالت: تلك مملكة تطمع فيها الجوارح من كل نوع، وإنه خطر عظيمعلى البيض أن نكشفه.

وافقتها على كلامها، أسكناه شقًا دافئًا أعلى جبل، ووارينا شقه بحجر حملناه معًا من الأرض.

لا أطير الآن إلا وتطير هي إلى جانبي، نتشارك الصيد الواحد، نشرب من نفس البركة، وأنام تحت جناحيها كل يوم، أصبحت شيهانة سببًا

للحياة وما عدت أتخيل حياتي بدونها، واقفًا معها أعلى شجرتي البرتقال تراقب أعيننا النظام بين الطيور، قلت لها: أنتِ حياتي.

أجابتني: وأنت حياتي.

- تعلمين؟... منذ كنتِ لي نسيت ثأري مع البشر، ولأجل أن أكون معك، سوف أنسى كل شيء آخر.

همّت لتجيبني فلم تجيبني، هممت لأسمع ما تقول فلم أسمع شيئًا، فقط رأيت... رأيت رأسها يتفجر بجانبي، ورأيت جسدها يسقط مرخيًا على الأرض، ولا حياة فيه.

ورأيت على الأرض اثنين من البشر، وفي أيديهما بنادق، طرت إليهما وصحت بأعلى صوتي: هجوم. سمعها قائد سرب الهجوم "الحر الأبيض" وصاح هو الآخر:هجووم. طرت إلى أحد المعتدين قضمت قطعة من كتفه، تبعني الحر الأبيض وقضم قطعةً لنفسه هو الآخر، تبعه كامل عدد سرب الهجوم، صف أول مر وقضم، تبعه صف آخر وقضم، بمرور الصف رقم مائة لم يكن للمعتديْن أثر على الأرضِ غير عظامهما.

طرت إلى السماء ومنعت أي طير من اتباعي، طرت ورحت أردد:ثأر، ثأر، ثأر. نزلت على رجل، خطفت عينه من على وجهه، عدت بها إلى شجرتي البرتقال، وجدت الحر الأبيض ووجدت كامل عدد سرب الهجوم، أسقطت العين من منقاري أمام الجميع، وقلت: كل طيرٍ في المملكة يدين لي بعين واحدة يجلبها لي... طيروا، ائتوني بالعيون.

حلق الوغد الأبيض وحلقت خلفه الصفوف، راح بعضهم يردد:ثأر، ثأر. وراح بعضهم يردد:صجر، صجر. وراح آخرون يرددون بكلمات غير مفهومة هي خليط بين الاثنين، لم يكن ذلك عندي بالغريب، فأنا صجر، وأنا كذلك ثأر قد نزل من السماء على بني البشر، فلا بقيت أعينهم.

الفصل السادس عشر

رجل

انبلج الضياء في أول ساعة للفجر على القرية المنكوبة، وتردد صدى صوت الآذان من المآذن داعيًا خلق الله إلى الصلاة، وكأن في القرية كلها من هو قادرعلى الخروج!

لزم الناس بيوتهم آمنين يخشون على أنفسهم هجمات الكلاب عليهم، وهجمات الطيور، قام أبي من نومه قبل الآذان بساعة ترتعش أطرافه لما وقع عليه من الغضب، سار إلى أبنائه الثلاثة الآخرين وأفزعهم من نومهم، ولما سار إليّ أنا أكبر إخوتي وجدني ساهرًا لم يطِبْ لي جفن، ولم تغفل لي عين؛ مما كنت قد رأيت لحظة ما هجم الكلب الغاشم على جدتي أثناء عودتها من الغيط، ولم يكن معها أحد منا، هجم الكلب عليها، وفقأ لها عينَيْها، ولولا أن استغاثت بالناس فأغاثوها لكان قتلها اللعين.

هرعنا بها إلى المستشفى العام، وبجهدٍ بالغ داواها الأطبة، وخففوا عنها أَلَمَها العضال.

مسكينة جدتي ما زال صريخها عالقًا بأذنَيّ حتى الساعة، الحمدلله أنها أخيرًا استطاعت النوم... وقع الحادث صباح البارحة، وحينما سمع أبي به أمسك بقضيب حديدي وسار إلى"السعيد صالح" صاحب الكلب يريد ضربه، يريد فقْء عينيه مثلما فعل كلبه بجدتي، يريد قتله.

التم الناس حولهما، وهرعوا إليهما من كل فج يبعدون أبي عنه، ويحدثونه بالمنطق، قال أحدهم: يارجل.. قد فعلها الكلب لا صاحبه.

سمع السعيد صالح كلام الرجل فاستحسنه واطمأن إليه، وصرخ وسط الزحام: كلب السوء، لقيت أنا منه مثل ما لقيت أنت، وها هي التقاطيع في وجهي، وها هي آثار أنيابه في طرف جلبابي.

سمعه أبي فسكن ولم يظهر العداء، رآه الناس فانفضوا عنه لما اطمأنوا إليه، غافلهم أبي، حمل قضيبه، وضرب السعيد صالح على رأسه فشقَّها، حمله الناس على الأكتاف وركضوا به إلى المستشفى العام، قال الناس في ساعتها قد أخذ لأمه ثأرها، وبردت ناره، ولكن لا، لو بردت النار المشتعلة في صدر أبي لكنت أول من يعلم، وما أظنه بمجرد ضربه للسعيد صالح قد اكتفى.

*****

الآن صُبح وليل مهجورة الشوارع من الناس أجمعين، تغزوها الجوارح وتملأها الكلاب، سمعت جدتي عواءً فقامت من نومها تصرخ، هدأناها، جلسنا بجانبها، أمسكنا بأيديها، وواسيناها حتى نامت، جمعنا والدي حوله، وضع الأسلحة في أيادينا واقتادنا إلى الشارع، وأول ما لقيه أبي أمامه كان كلبًا نائمًا على عتبة منزلنا، أنزل والدي قضيبه الحديدي على رأس الكلب فشقَّها، ومات الكلب، ثم أخذ السلاح الناري من يدي وأعطاني قضيبه الحديدي فحسسته لزجًا تقطر الدماء منه، رأتنا مجموعة من الكلاب وأخذت تعوي

وتجري نحونا، فتح والدي نيران سلاحه عليهم حتى أفرغ خزنته، وقتلهم جميعًا، مجموعة أخرى على يسارنا جاءت على صخب الكلاب المقتولة مهرولة، وصلت الكلاب إلينا،قفز أحدها على والدي فشق له جلبابه، وأغرز نابًا في كتفه، صرخ والدي، فجذبناه إلى داخل البيت وأغلقنا خلفنا الباب، تكالب المعتدون على الباب، ورموا أنفسهم عليه، فلم يستطيعوا اختراقه، استيقظت جدتي على أصوات العواء، وشرعت تبكي وتصرخ، لا تسكتها تلك المرات مواساتنا لها.

أصوات بالخارج، وأصوات بالداخل، الكلاب ترمي نفسها على باب منزلنا وتعوي، والدي ممدد في طرقة المنزل غارق في دمه، حوله إخوتي يدمعون، وجدتي تصرخ، تبكي، وتنادي على والدي بأعلى صوتها، وضعت قدمًاعلى السلم، فرأيتني أصعد إلى الطابق العلوي، جركن غاز متروك لوقت الحاجة إليه، أخذته، أزلت غطاءه، صعدت إلى سطح المنزل وبحرص بالغ أفرغت نصفه على الكلاب، فلم تفطن له، ولم تعلم خطورته، أخرجت قداحةً من جيبي أشعلتها، ومن علو الثلاثة طوابق أسقطتها على الأرض، اشتعلت النيران في الكلاب فزاد عواؤها، وصريخها، أخذت تتخبط في جدران المنزل، وتمرغت في التراب ظهرًا إلى بطن، ومع ذلك لم تنطفئ نيرانها، ولم تهدأ، عوت الكلاب عواء كله ألم، وتفرقت مهرولة في كل مكان.

*****

رأى والدي ما فعلت بالكلاب كما رآه بقية إخوتي، راقبتها أنا وهي تجري عاوية إلى كل مكان، فغاب عقلي في إثرها، ولم أشعر بنفسي إلا ووالدي يدخل عليّ، ارتجت درجات السلم من إثر خطواته، وجهه مسود لا أتبين الملامح فيه من طول نظري في النار على ظهور الكلاب، اقترب أكثر، فلم يخف سوادُ وجهه، لكني ميزت في ضيق ملامحه الغضب، وصل إليّ، وقف أمامي، جرحه مضمد تضميدة ارتجالية، عرقه يسيل، يلهث بقوة لاستعجاله بلوغ السطح، ذراعه الأيسر المصاب ساكن لا حركة فيه، وذراعه الأيمن المعافى ينتفض أمامي، وأحسه يهم ليبطش بي، رفع كفه إلى السماء وأنزله على وجهي فأدماه، صرخت فيه باكيًا: وماذا فعلت أنا؟

- يا فقري، يا ابن الفقري، لماذا تهرع إلى جركن الغاز دون أمري، لم أستعمله أنا، فما حملك عليه!

- ولكن يا والدي...

لم توقفه كلمة لكن، وأوقفني أنا كفه لما أنزله على وجهي مرة أخرى، فحسست من شدة ضربه وكأن يميني شتاء، ويساري صيف قائظ، أشار والدي إلى الكلاب الهاربة في الأفق البعيد، وقال: انظر يا ابن الشقية ما صنعت.

نظرت فرأيتها دخلت وسط حقول القمح الناشفة، الجافة، فاشتعلت النيران فيها، وامتدت على امتداد بصري في الحقول المغطاة بالندى.

نزلت الدموع من عيني، ولم أدرِ أهي من شدة الألم في وجهي أم من الحسرة على فداحة ما صنعت، نظرت إلى والدي، ورأيت كفه في السماء للمرة الثالثة، ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا طريح على سطح المنزل، والنار ممسكة في وجهي من شدة الضرب، وفي الأفق القريب ارتفع الصريخ في القرية، وعلا صوته من كل منزل "احترق المحصول، احترق المحصول".

الفصل السابع عشر

صـــجـــر

حرت...

حرت وازدادت حيرتي، ولم تعرفني الطيور يومًا بأني حائر.

تقدمت بمنقاري وطرت به في الهواء.

هبت الريح اتجاهي عادية عليّ فحلقت عبرها، وشققت صفحتها إلى اثنتين، قسمتها إلى فرقتين، وحلت بينها وبين اجتماعها ببعضها البعض.

على سن الجبل أراقب بعينَيّ مجرى الحرب الدائرة تعينني على ذلك حدة في نظري تنفذ عبر الظلام، وتنفذ عبر الغبار، وعبر زوابع الصحاري، وعبر الندى، أسفل مني البيوت، والحقول، والزروع، وأسفل مني الترع... سمكة جريئة تسبح في مجرى خفيف على مقربة من الجرف، طرت إليها، قبضت عليها فقاومت، عصرتها بمخالبي، وغرزتها في لحمها حتى خرجت الروح منها وقل وزنها عليّ.. أو هكذا ظننت.

طرت بها وعلوت في السماء، لا يحدني سقف، طرت حتى اصطدمت بغيمة شريدة تعبر وحدها في السماء، ثم أفلتُّ السمكة من قبضتي فسقطت إلى أسفل، عادت إلى ماء الترعة، غاصت بسرعة فيه، وانغرست في طين القاع حتى النصف من شدة اندفاعها.

عدت إلى مقر المملكة... قدم الجند عليّ بطائر بوم جبن عن مهاجمة البشر، وتخلف عن صفه وسط صفوف أخرى عديدة جاءها الأمر بالغوص والقنص، بالفقْء والوخز، بالنحر والقتل. امتثل السرب للأمر بالهجوم، وامتثل له الصف، وما كان من البوم الرعديد في ساعة الحسمِ إلا أن ولَّى وأدبر.

وضعه زملاء سربه أمامي فأعطيت الأمر للجند فنهضوا له، وهم ينظرون، وجاء أمري بأن: اقطعوا أحد جناحيه، ودعوا له الآخر. فامتثلوا له، وكما قلت فعلوا.

تهاوى الحزين أمامنا حينما قطعوا له جناحه، ومال إلى جنبه المقطوع، اختل وقوفه على فرع شجرة البرتقال، وسقط يتفرق دمه في الهواء، ويتناثر من مكان البتر على ظهره، ونزل على الأرض يضربها بجناحه الوحيد فهيج الغبار وتصاعد، ولم ينقشع إلا وتَبيّن عن جثة هامدة مكانه.

فارق البوم الحزين جناحه، وعلم أنه لن يهنأ بعده بعيشٍ فمات، وهكذا ظني بنفسي أنا لما فارقتني الشيهانة، لا أهنأ بعدها بعيش، ولا يكون حالي بعدها مثل حالي معها... ماتت هي فما ينقصني إلا أن أموت، ويمنعني حقًا أن أموت اشتهائي للثأر، واشتهائي للقتل.

فها هو ثأري القديم مع البشر، كنت أظنني قد نسيته وأني في غنى عنه، إلا أنه رغمًا عني قد تجدد، وأجبرني على الخوض فيه.

*****

شاهد زملاء سرب طائر البوم نهايته بأمري فاتعظوا منه، ولم يعترضوا عليه، وهم معظمهم من طيور أبو القردان، كان قد أرسلهم قائد سرب الهجوم "الحر الأبيض" أرسلهم بطائر البوم الغادر لما علم بخبره، ولم يقتادهإليّ بنفسه لانشغاله بحربه على البشر، أمرتهم بالعودة إليه فحلقوا مرتفعين، ولم يعلُ كثيرًا تحليقهم في السماء حتى نزلوا عليّ مرة أخرى.

سألت: ما الخبر؟

فأجابني أسرعهم إلى الإجابة: ملكي... يجب أن تنظر.

سألت: إلى ماذا أنظر؟

قال: هذا.

وبالفعل، حقيقٌ بهذا الذي أشار إليه ألا تفوتني رؤيته.

حيث قد اشتعلت النيران في الحقول الجافة حولنا، وأحاطت بنا إحاطة المياه باليابسة، ضيقت النار علينا، أكلت كل المحاصيل حولنا، ولم تتجنب إلا بقعةً خضراء حيث نقف، حلقت في السماء فرأيت محيط النار المستعر قد مس كل شيء حولنا، الزروع والأشجار، والنخيل، وزرائب الفلاحين، وبهائهم التي تفحمت في أماكنها، رأيت النار، عجبت لها، وعجبت لقوتها التدميرية الهائلة، نزلت إلى الأرض حملت سنبلة قمح مشتعل طرفها، رآني الجنود ومبعوثو سرب الهجوم، ففعلوا كما فعلت، طرت إلى قلب القرية وطاروا هم خلفي، وقع نظري على جبل من القش اليابس وسط المنازل هبطت عليه، وألقيت السنبلة بالضبط في وسطه، فعلت

الطيور مثلي وابتعدت، اشتعل القش في الصباح الباكر، وحملته الرياح إلى الزرائب والمنازل القريبة منه فاشتعلت... اشتد الحريق وانتقل من منزل إلى منزل، من شارع إلى شارع، ومن حي إلى حي، جاءني الحر الأبيض فأمرته أن يفعل هو وكامل سربه مثل ما فعلت، وأجاب بالسمع والطاعة.

احترق الناس في المنازل، واحترقوا كذلك في الشوارع، احترقت منازلهم، وزرائبهم، وبهائهم، وكل شيء قد ملكوه، هربوا بالسيارات، والحمير، وبالبغال، وهربوا بالآلات الزراعية من جرارات، وشاحنات، ومقاطير.

داهمتهم النيران من أعلى ومن أسفل، ولم يستطيعوا النجاة، جاء الليل على البلدة فغشاها السواد، سواد في السماء وسواد في الأرضِ من أثر الحريق، جاء الليل فكانت القرية قد خلت من كل إنسان وحيوان فيها، ولم يبقَ من كل ذلك سوى الطيور.

الفصل الثامن عشر

الصقر وافي

خلت البلدة من كل البشر فيها كما خلت قبل ذلك من الغربان، ووقف صجر باسطًا جناحيه على أطراف المملكة لا يغالبه على حكمها غلاب بعد أن غلب كيده كيد الكائدين من كل جنس، ووقفت الجموع تهتف له باسمه كما هتفت له مرات عدة من قبل: صجر، صجر، صجر.

حقيق بهكذا صقر ألا يطمع عدو له في الغلبة عليه، فمنذ وجدني أنا وإخوتي، ومنذ أن لزمته كانت له الغلبة على كل عدو، وحاقد، عاديًا كان أو معتدى عليه، كبيرًا كان أم صغيرًا.

وكذلك حقيق بصقر كهذا مع عظم مسؤولياته أن يكون أكثر دراية بقلوب تابعيه، وأن يأخذ الحذر في كل وقته حتى وإن لم يكن هناك داعٍ إلى الحذر... لزمت أنا صجرًا من دون إخوتي؛ لأنه فضلني عليهم، ورغم عظم ذلك ومأثرته كنت أنا أقل إخوتي من هذا الملك حظًا، فثاني أخي الأصغر مني ولاه صجر قيادة سرب الدفاع بعد موت سيدة الصقور شيهانة، وأخي ثالث الأصغر من ثاني قد لزم قائد سرب الهجوم الحر الأبيض يتبعه في كل مكان، ويغير معه على الأعداء، قد علا شأنه، وعظمت خبرته عني أنا، وله مع كل ذلك عدد من الجنود يأتمرون بأمره، وأصغرنا جميعًا أخونا تابع، قد ولاه صجر قيادة السرب الثالث بعد موت قائده أحمر الرأس، وتشهد له كل الطيور

بعد ذلك بحنكته، وفطنته، وحسن مقامه على واحد من من أهم ثلاثة أسراب في المملكة، ومع لزومي أنا لصجر لم يكن هناك الكثير لأفعله، فيقوم هو على مملكة وأقعد أنا، يأمر في جنده وينهي، يروح ويجيء، وما أنا من هذا كله بشيء، إنما فقط أتبعه وأنظر، أتبعه وأفكر، ولأجل طول نظري وقلة نظره، ولأجل طول اشتغاله وطول تفرغي كان نصيبي أن ألحظ كل غريبة تخفى عنه وأوزنها، ولما كان نصيبي كله في تلك المملكة هو أن أنظر، أمعنت النظر، ودققت به، فبان لي وظهر ما لم يظهر لأحد غيري، لم يظهر حتى لصجر نفسه.

ومن عظيم ما نظرت فيه، نظرتي لجنده اليوم بعد حربه على البشر... وقد هتفت طيور أبو القردان، فلم يهتف مثلها فصيل من الطيور، وعلا صوتها على البقية رغم ضعف فيه، ليس بالأمر العجيب هتافها بتلك القوة لصجر، وهو الذي أفجرهم بعد ضعف، ووهن، وجمعهم بعد الشتات.

وهتفت طيور البوم، فلم تكن تهتف بنفس الحماس الذي هتفت به في مقرها يوم نصبته ملكًا عليها، فالبوم تحب، وأكثر ما تحبه هو سعيها ليلًا، وقد أخرجها هو نهارًا، تحب الدعة والتنزه، وقد أخرجها هو لحرب أعدائه، وتؤثر الجبن والسلام، وإذا به يعاقبها عليهما إذا ظهرا منها أمامه.

وهتفت كذلك صقور سرب الشمال فلم تظهر عليهم رغبة في الهتاف، شلة من المنافقين المُرائين لا أراهم يظهرون ولاء منهم لصجر إلا خوفًا من بطشه، فقد كانوا آخر فرقة تخرج علينا من

سرب الشمال، ولم تكن لهم سابقة بحربنا وذلك دليل جبن، وما رأوا سربنا يغلب سرب الشمال حتى انحلوا عنه، وتبعونا، ولا يقع ناظري عليهم إلا وأرى أعينهم معلقة بالسماء ترقب وصول شيء، ولا أحسبه يكون شيئًا آخر غير قائدهم في سرب الشمال "الصقر الخطاف"... أخبرني صجر في يوم قائلًا: أي شيء تريده هو لك، أي شيء تطلبه آتيك به.

يومها لم يكن فيبالي شيء أشتهيه؛ لأنه لم يجعلني أبدًا أعرف الحاجة، وحينما عدت أذكره بوعده سألني: ماذا تريد؟

قلت: أريد الوزارة...

سأل: ماذا تريد؟

أجبته: ما سمعته سيدي، اجعلني وزيرًا لك.

حينها قرقر بأعلى صوته في حضرة جمع كبير من الجند، وأهلس ساخرًا من مطلبي، ثم قال: حسبتك أقل سذاجة.

سألته كاظمًا للغيظ: وما معنى ذلك؟

أجابني حينها: لست بهذا الذكاء.

حينها نظرت في وجهه، وقلت: بل لست بهذا الذكاء. لما قلت ذلك له حسبني أردد مقالته الأولى عني، ولكني كنت أعنيه هو بها، فليس صجر ومع عظم فتوحاته بأذكى الطيور، وذلك لأني أرى، وكثير مما أراه هو بالخطب العظيم الذي قد تتزلزل له مملكته، ويقع كل ذلك الخطب مباشرةً تحت عينيه، ولا أظنه حقًا يراه، ولا أظنه على أقل

التقديرات يفطن له، فصجر قد حارب، وصجر قد انتصر، هو الآن لم يعد نفس المحارب الذي كان عليه من قبل، هو الآن مُنتَصِرٌ قد لفته انتصاراته في أثواب من الزهو حرمت عليه كثيرًا من نفسه، وحرمت عليه أن يرى.

فالآن بعد الذي صارت إليه نفسه، الآن فقط حق لعدوٍ له أن يطمع في الغلبة عليه.

الفصل التاسع عشر

صـــجـــر

جنوبًا في البراري الخضراء الواسعة التي لا نهاية لها -كما أخبرتني أمي صغيرًا- كان لنا فوق شجرة من الشجر عُش، هو العُش الذي عاش والداي فيه وتكاثرا، ووضعا فيه مع نهاية الصيف بيضتيْن. براري مسالمة قد ملكتها الطيور بغير ملك؛ إذ غاب البشر عنها ورحلوا... فقست البيضة الأولى لهما وخرج منها أخي الأكبر فأطعماه، وعلماه، ودرباه على فنون الصيد.

حينما فقست بيضتي بعد ذلك لم يكن والداي على مقربةٍ منا، ولأجل ضرورة طارئة كانا قد غابا لمدة من الزمن، ورأيت أخي أول ما رأيت فأطعمني، وعلمني، ودربني على فنون الصيد فتعلقت به، وتبعته في كل مكان، ولم ينضب حبي له حتى بعد عودة والدَيّ، وكان احترامي له أكثر من احترامي لهما هما الاثنيْن مجتمعيْن. أسترجع في ذاكرتي كل ذلك، وأتذكر أني في يوم خرجت من بيضة، أما الآن فأنتظر بيضًا لي أن يفقس، كم هو محزن لشيهانة أن تموت، كم هو محزن أنها رحلت عني، وكم هو محزن أن تفقس الأفراخ ولا تجدُ لها أمًا، حقيقة، إن هذا لمحزن غاية الحزن.

إن تلك الأفراخ سوف تضيع إن خرجت إلى الدنيا ولم أكن أنا أيضًا إلى جوارها؛ هذا ما لم أسمح به بعد أن قضيت على كل الأسباب التي قد تودي إلى موتي، فالآن بعد أن رحل البشر عن البلدة قد خلت

علينا، وفرغت من الأعداء فيها، فطيور أبو القردان جنود لنا، والغربان قد ماتت جميعها، والبوم أقسموا بالولاء، وصقور سرب الشمال قد أفنينا نصفها، وجندنا النصف الآخر، وضممناهم إلى صفوفنا، وبعد ذلك كله قد خلت المحروسة علينا من الأعداء، فمنهم من مات، ومنهم من خضع، ولا سبيل أمام ذلك الذي خضع إلى العصيان.

فتلك هي مملكة الطيور "المحروسة"، وأنا مَلِكٌ عليها، فمن ذا قد يتمرد على المَلِك؟

الصقر وافي: صحيح... من ذا قد يتمرد على الملك.

تمت بحمد الله

تعريف بالكاتب

أحمد سالمان إسماعيل محمد

أحمد أبوسيف"انتسابًا للعائلة"

كاتب مصري مواليد الخامس من يوليو عام ١٩٩٩م

له من الأعمال المنشورة رواية "حديث القرية" والمجموعة القصصية "زمن لا يصلح للخلفة" لدى المكتبة العربية للنشر والتوزيع. وله رواية "لعنة كتاب" ورواية "طيف المعمداني" لدى دار الزيات للنشر والتوزيع. وكتابه هذا "زعيم القبيلة".

المحتويات

أولاً: زعيم القبيلة ٥
الإهداء ٧
بدايــة ٩
ما بعد البداية ١٠
الفصل الأول لحظة ولادة ١١
الفصل الثاني الأب الزعيم ١٩
الفصل الثالث المسير للغاب ٢٦
الفصل الرابع طعنة في الشجرة ٣٤
الفصل الخامس زعيم القبيلة ٤١
الفصل السادس القطيع الغاضب ٤٩
الفصل السابع نزال الأشبال ٥٤
الفصل الثامن موتة ثالثة ٦٢
ثانياً: صجر ٦٥
الفصل الأول صجـر ٦٧
الفصل الثاني حكيم سرب الشمال ٧٠
الفصل الثالث صجـر ٧٢
الفصل الرابع الثعبان المتفحم ٧٤

الفصل الخامس صجـر ٧٦
الفصل السادس غراب ذكي ٧٨
الفصل السابع صجـر ٨٠
الفصل الثامن الحر الأبيض ٨٥
الفصل التاسع صجـر ٨٨
الفصل العاشر أبو قردان ٩٣
الفصل الحادي عشر صجـر ٩٧
الفصل الثاني عشر أحمر الرأس ١٠٢
الفصل الثالث عشر صجـر ١٠٩
الفصل الرابع عشر كلب ١١٩
الفصل الخامس عشر صجـر ١٢٥
الفصل السادس عشر رجل ١٣٣
الفصل السابع عشر صجـر ١٣٨
الفصل الثامن عشر الصقر وافي ١٤٢
الفصل التاسع عشر صجـر ١٤٦
تعريف بالكاتب..... ١٤٩